القَبِيع

رواية

الزين نور الدين

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2021

القيرع

(همسة في الظلام)

رواية

الزين نور الدين

العنوان: القيرع

النوع الأدبي: رواية

المؤلف: الزين نور الدين (نبذة)

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2020

الحالة: منشورة ورقيّاً

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 105

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

مقدمة

اصغ في صمت واحذر بين الحين والآخر وخلفك...أيضا ليلا نهارا من أن تستملك مشاعرك فتتواطأ مع إحدى أصواتها مجانيا لتصبح متخيلها البليد الذي يلعن كل شيء ...و يحب كل شيء ... كالطفلة أو كالمعتوه فتضلل بذلك كل الأحاسيس الأخرى،لتظن أنك مطلوب أنت الآخر،لكن بنفس القيد... أو أمردهم الأوحد،بكل مقاساته المؤلمة.

ـ للحظة أحيانا،و ضميري،وأنا أقرأ الرواية يلح،وتزفر علي بكامل قواها مشاعري وأعصابها تحمر أي تأنيبة عقلي لتقول لي وهي على واجهة من العالم،والادان الكونية،من منا تشّفق على مسيو ديسكوفاردي وحانته ؟؟؟ وخان مخيال ضيفه الآن!!و شتم خضرة العباسية البارحة وتحامل،على القيرع مسكينا،بالأمس رشقا،بتلك الحجارة فأخال أنا نفسي أيضا معه بعباءتي المحببة الفضفاضة المهملة، ولحيتي المتكورة، كالمجنون حسب نعت زملائي وأقاربي، للمرة الثانية بعد المائة،من تحامل عليه إذن ؟؟؟أنت،أم الأطفال أم،نحن أم الواقع المعيشي، فالكل يبريء نفسه إلا القراءة؟؟

الزين نورالدين الجزائر بشار: ١٩٩٦ –٢٠٠٤

الفصل الأول

...لئن صلبوني ادخلوا عزوبتي نفقهم السري عاريا، على نصف طاولة خشبية وأنا متبث، بقطع من أسلاك الكهرباء، وأخرى معدنية، وصلبة تحت أضواء كاشفة، وأنابيب البحث عن ما تفوه به السلطان خفية، عن جدران قصره، لرجاله مستمرة بجسدي إلى حد الساعة!!بواسطة محرك.كان ينفث من حين لآخر...! بقعا صغيرة جدا، وساخنة من الزيت المحروق تجاه النافذة، ومعها فتاة من اللحم الخفيف لست أدري لمن؟؟؟! ولحسن الحظ لم تصبن تلك البقع، إلا على قدمي المنتفخة الأصابع، بنزيفها المائل، إلى السواد، كالعصا، وعلى عنقي وشيء قليلا زاد من ثقل خشونة شعري الملطخ صمغا، كالعفريت. وقفوا، عليه ببدلات... رسمية داكنة، وهم يلهثون أمامه، ككلاب ضالة ما كاد يهش عليهم، بأسلافي عباءته الرهبة، حتى نطح أحدهم الآخر...، وبسرعة فائقة أحضروا نعشا من حطب ملطخا، بالدماء وبقايا أظافر آدمية عليه، وتهيؤا لنقلي داخل أنبوب شاسع، كالفرن،تنبعث منه أصوات مختلطة، وهي نفسها، كان يتردد صداها في ظلامه الدامس.كانت الأجواء تشيء، برحيل المدن السبع، بلونها البني، على رأسها، بالمقلوب، كالإناء الفخاري!! الذي، فقد زخارفه الجميلة،وفي ليلة حالكة، وخفية عن جدتي استعطفني لئن أضفت،

على حوضه ثلاث علامات متناقضة، مع بعضها البعض شبه بنفسجية مثل تلك المدن ! بعد أن كنت قد رممته، على عجلة من أمري في حين كانت الاكفان ، والجباه ينصب عليها بياض عرق مالحا، ثم رميت الفرشاة على حين... ! فكرت ثم تداركت فكان علينا أن نتجرأ، ونقاطعه، بحدة افواهنا العطشى ونقول أيا شيأ لهم رغم الأحزان المظلمة والرؤوس المنشطرة خوفا ! أخذ يتربب،ويثرثر،وفمه يملا زبدا!! حتى أني لما طليت، عليهم من بين المنافذ أعتقدت أنه يوجد خلقا كثيرا، بداخل زنزانة القصر، وهم لم يكد يستزيدوا، عن ثلاث ضحايا، بما فينا الشخص الذي ثقب غشاء أدنيه نجدة لحياته من هول الأصدأ!! وهناك وحدة خاصة يصل إلى الخارج مدخلها، بشكل مخروط عجيب، والأبواب الذهبية في جيئة وذهابة مرتجة الزجاج، وعليه أدركت بسمعي المرهف، كالخفاش أن لعبة الاستمالة، والبتر حان وقتها لامحاله!!

. أردف العون واجما يبكي، بين يديه، ثم أضاف سيدي مع كل توسلاتي، بأن لانبقي أحدهم هنا، وأولهم ندلي عنقه بئر السلطان تحرك، وهم واقفا أضرب على راحتي يديه دار دورة كاملة، حول مصطبة رخامية، حتى كاد أن يلقي، تمثالا يوغرطة، وماسنيسا اللذان يزين بهما مجلسه الفاخر أرضا!!، ويفتخر بهما، كهلالي وعربي قح!

ألا ترون أن غرابة هذه الجارية هو في عصيانها ومخالفتها أمر الملك وصهره السلطان في سحق مربع مرآتها الصغيرة التي أصبحت تخفيها، تحت

وسادتها، وظلت هذه الأيام تمتطي ظل السر، وركوب الحمار، بالمقلوب، والضحك ينتابها من أحشائها، وقلبها المقلوبان، هما أيضا ولسماعها أول مرة بسمرة النبي موسى وزيد بن حارثة، كذلك وكرهها لهما لكن عكس جسدها، بالمرة، لئن يسقط السر، ويتبعه ظله، كالقطعة الذهبية، أو أن تسقطه في حبها مع عرشه،أستغرب كبير كبرنات مستودع حفظ الجثث من هذه العبارة!!، لكن خاف أن يبتسم، ويختنق من شدة الضحك الهستيري، والمكان الضيق مغزى من طرف الفتيات البالغين البور مع بقية الحشرات، وهن يتشعبذن، على كفن الأموات طمعا، في أبراج كثيرة و محظوظة، و لتعلموا أن توقيفكم، كان يشغل بال طرفا،حتى زوايا السلطان من الرغم أن حقيقة الراوي لم يبدأ، بعد بمدنا كاملا، ببقية الأسرار، وبالحكايات الأخرى وبفجوة الصاحب بن عباد مع نساخه التوحيدي؟!!.

. أشار إلى زميلي، بقلم من حطب الفلين، وقال له، وهو يلوح، برأسه أنت، وسماتك يعرفونك رجالنا، بالرغم من أن سقطت سهوا، على أنابيب التلوين لطختك!! ولما حاولت الاستعانة، بعمود كهربائي ثانية، تلطخت يداك، بفحم الجدران، ووحل السفينة...أيضا!!

. ...ر ...و ..د. .سس..م؟!

. أصمت ولاتكثرت، في المزيد من الافتراءات، لقد ضبطت، وأنت تربط على أعناق جثثهم مناشير سرية توهيما، لرجال القصر، وتمويها لكم وعليهم....!!

سيدي...! بالفعل كان ذلك بمجرد خروجي، إلى القرية سمعت، بغرق السفينة خلال ثلاثة أشهر وبأن جارنا بلغوث تعرض لتهمة أسفرت، عن ضربه من قبل الحاشية، بسوط تلك الجارية الجميلة وهي عارية والملك بجانبها يستعطف رؤيتها من الخلف ويضرب نفسه أرضا من شدة التهوس بها، ضج الحي وقرعت الدفوف، ثم تكرر المشهد مع الزغاريد، والنياح، مع محاولة رجاله اغتيال دومري المدن، والكل غدا يشتكى من الأزمة، في قناديل البترول، للنقص في سوائل النفط خصوصا، في السنوات الأخيرة، ثم ما لبث أن هدأ كل شيء، لكنني بما أني مدون اللحظات الغامضة، ولتمرسي على الكتابة، والقراءة، وهذياني، للفارسية لم أكترث، بالأمر أهمية فتخيلت ذلك مجرد مسرحية تمثيلية، وفي الواقع سجل الديوان نفسه لا يحمل اسم من هذا النوع الأمرد بوحنين شعر مائل إلى الفطس، وعباءته هي بركة قماشة خضراء متشرشفة، بخيوط حمراء، وبيضاء،توارثها، عن جده خادم الولي الصالح سيدي بوسماحة!!! أفصح ما علاقتك به؟!!! تظاهرت بعدم الانتباه إلى سؤاله جزافا، بذاكرتي، نحو المربع الياقوتي الزجاجي الذي يسبح فيه السمك مكونا علامات وفقاعات ودوائر خلفه وأمامه، ثم يلتوي ليمحيها، ثم يعود من نقطة البدء.

ـ آه لعلك تهددنا، بمنصبك ودورك، بزاوية قريتك، ونعلي سيدك المغبرتان، على رأسك كبركة كلما نزعهما؟؟؟؟!

ـ..... وإلا كيف أتهم، بمثل هذه التهمة أقترب أحد رجال السلطان، وعلى وملامحه حبيبات صغيرة تشبه الصخر ينز، بجسد واحد ومائة وجه تافه جدا!! يطرق جميع الألوان كالحرباء، وأخرى يشدها، مع سور القصر، سوى خيط باهت، كالدمية.

ـ عم تتهامسون ؟؟؟؟ عن العربي بن المهيدي، وحكايته، مع هذه الزنزانة الغارقة في قفصها المظلم وأقُتل ؟؟؟! أم أنتحر! برغبة منه، وأظن هو صاحب إشاعة الانتحار!!! هذا هو عصام الذي أرتقي إلى صف حاشية الحرس، في هذه الأيام، ومعلوم أنه لم يفهم عما نتحدث حقا، وأنه، كان يكثر من التحذيرات على أعوانه، منا من خلف السياج، ويقحم رئيس الحرس أن لا يترك باب الزنزانة مفتوحا، على ساحة واجهة حظيرة سهلة التدحرج، ثم الفرار على جانب أشواك نبات الهندية! ثم المنفذ الصغير، ثم تخرجك تماما، على شوارع صغيرة... فمن يدري؟! ان لم يجعلوا مثوانا بعيدا، في خندق من دخان الجن الدائري الرابضة فوهته، على بقايا قبور مياه النجف. قال، للرئيس نحن متأهبون على مشروع حبس قريب السقف، من أرضيته فوق الماء، أمرناهم، ورعشات الضحك،على ملامح كؤوسنا ففعلوا نهارا مناما رؤوسهم منكسة، أياديهم متوغلة في رحمها، وأسلحتهم الثقيلة، على ظهورهم. كان في الواقع هذا العون يعرف الكثير، عن شخصيتي الفذة، واستغرب، لمعرفتي البسيطة، والعادية جدا، للرياضياتي موريس أدان الغامض الاختفاء!!منذ ١٩٥٧ويعرفني أني شجع أكثر من اللازم في الصحف رغم عزوبته، وبروده الجنسي الفظيع

وأنا أبحث معه، ودون أن يراني من مكان آخر، للدفء غير زحمة الكتب والأوراق، وقصاصات الجرائد، والتمتع، برؤية اللوحات الزيتية، لما كان نائبا لدى رجال السلطان، بيد أن أعوانه يجهلون تمام الجهل إلا واحد منهم لا أذكر قسمات وجهه جيدا، ولكن به، وشمه، على أدنه بإبرة خضرة العباسية، ونيلجها البراق التي قدمت له ذات يوم عاهرة باردة النفس، والجسد معا!! والذي يمازحه من أسفل البناية بفصام بدل عصام قيل لي أنه أصيب، بسرطان المثانة، والقضيب، والهستيرية، و نقل إلى فرنسا ملوث الدم، بالروجة منذ ثلاث سنوات وعاد جثة هامدة، في تابوته تطوع مدير مدرسة حسيبة بن بوعلي لإقامة الجنازة، عنده بساحة المدرسة الشاسعة، نظرا، لضيق شقة ذويه البرصاء، بالوسخ، والزنك الصدئ، والهش جراء الرطوبة الشمالية الهائلة، ومطرها الغزير.

. ما أغرب ما سمعت بالغوث؟؟؟!

طل من وراء ثقبة صغيرة سجان، ثم كرر النداء ما أغرب ما سمعت، من الأسماء بلغوث؟! ثالثهم شغله تفكيره، عن الحبس، وراح يتحدث، مع نفسه عن منظر مشهد الامتثال العلني، والمحاكمة يدك يده في الأرض، كالملاكم ليلة كاملة وهو بجانبي دون أن ينبس ببنت شفة، فأندهش السجان من عدم الاكتراث به مكررا لهجته الشديدة المتقطعة الجمل،أعذروني أن أوجه لكم آخر كلمة! أنا، في الحقيقة لا أفعل أكثر من دس المفاتيح الضخمة الصنديدة في أفواه أبواب الزنزانات، والتمتع، بحكي وحركات أفواه تلك

الغرفة الدامسة، بالزغب، والقمل، والبول وكتل الوسخ التي هناك، تحت رقم زنزانة ثماني والاربعين أنا من قبيلة مغراوة، وأمي أمازيغية من القبائل العليا، فلما تقدم الليل أوقع سلاحه متكأ على جدار الرواق، ويبدو أنه تراجع عن أسئلة عديدة، بإمكانها أن توضح له الموقف أكثر، ثم أضاف قلت أنت الذي يبدو عليك، بعض الوقار والملطخ السمات، والأسمال!!

ماذا تعني عندكم ولد مشيشة أي القطة ؟؟! وولد الديبة الأسمر، أو الأسود، أو الزرقي كما يحلو تسميته أهل الحلقة، بالسويقة الذي جلهم يرفضه لعطف بناتهم عليه، والإيقاع بهم في شراكه، في نهاية الأمر.

أردف ثالثهم دموعا خفيفة حدجه، برؤى مائلة إلى الغياب ذلك العون عله يستجلب عاطفته، قو يدر يشتغل في ورشة روك، منذ طلوع الفجر، حتى غروبها دون أن يمل في وضع القرميد، ويدفعه، نحو الفرن يخلط الطين، بكل قوته، حتى لاتكاد تسمع، سوى حشرجة صدره تنبعث من حين لآخر وجسمه يجري عرقا منبعث منه رائحة كريهة، لما يخطو بقامته، ويديه المعوجتين، والقاصرتين كالقرد! يبدو لك لأول وهلة، كأنما ملاكم جيء به من دغل إفريقي خاص، بالقردة تنهد، وابتسم بعمق بئيس ؟؟ إننا من أشقياء الكون أيها الرجل الطيب بإمكان أن تلدغك أية حشرة ضخمة من هؤلاء! أنت مثلا لم يبق،ولم يعد لك صوت عال انك شبه هرم وسنك لم يقف،بعد على مشارف الثلاثينات واحد مثلك كتب لي أشعارا جميلة أحيانا يرددها، بوجس، كان معي هنا انقضت مدته الآن، أهل البلدة كلهم يعترفون، بذوقه السلق، ومرغم،

بمديح الظل العالي، لمحمود درويش، ومتون أدونيس، ومحمد بنيس وأنا حبي الشديد والمفرط لرباعية الخيام وللفتاة التي تلاشت فجأة من بين يدي وأنستني حتى بحتها الرائعة والى غير رجعة.

. آه!! نعم قد أنتحر!! والقصر مشغول، بتشييع جنازة الملكة، والخدم ينتحب ويندب لعدم تنفيذ وصيتها؟! لترك فجوة بتابوتها تراقب منها ذكر النحل الذي تطور من بيض غير مخصب بالمرة، كيف يموت بعد الاقتران مع اناته و حركات السلطان، وهو يداعب خصرات جواريه، ويتساقط معهن على الحشيش ونعليه تدوس زهر النسرين المتوسد، على الأخضر، وما لبث أن أعاد السجان تهكمه بنابه المكسور بلغوث كاهْ!! كاهْ!! كاهْ!! ما أغرب ما سمعت قل جويد، أم الأمرد ما إسمك، بالضبط أهو أخوك لا!! لا!! أعرف شخصا بهذا الاسم الوحشي، وقلبه أوسع من صدره، كالجمل اسمع هناك تحريات رسمية يجب أن تقوم بها أنت، كرجل استطلاع؟!هؤلاء لا ينتسبون لك لامن بعيد،ولامن قريب إن نكهتي اليوم اختلفت عن ما كانت عليه،بالأمس،فهو في الحال يتفرد متعجرفا على مقعده التفت إلى الشخص الذي،كان مازال يتصنع الشجاعة،بالقرب مني تمتم مع الراقنة نظر إلى قدميها،ووجه إليه،بعض الأسئلة تنم،عن حقد دفين.

قل، أيها الولق،انهم قادرون على إعادة الحركة،ببطء وأنت تمزق شراع السفينة، كدليل على مشاركتهم معهم،وترمي بحوافر الجحش في بهو القصر لأمر خطير! ترك فترة صمت تعبر القاعة رفع بصره دعك من أي

تلاعب،ولاتزيد من إرهاق رجالنا وغرائزهم الدموية حرك رزنامة من الأوراق من على مكتبه،كانوا الأعوان يتتبعون سيرتك،دون أن تشعر،وليست هذه المرة الأولى، أنت جنسي تحب المدينة والتفقه في لغة الجدران ؟!وتحب رائحة المطاعم، وملامسة الدميات الكبيرة المعلقة على واجهة الدكاكين المعروضة عليها الألبسة الفاخرة، وتتعمد الخطف، بمجرد أن تنوي!. كان يجلس على مقعد شفاف، وشبه رمادي تسبح، بجوفه الأسماك، وطاولة ذات المتر والنصف لوزية اللون، وعلى حافتها نياشات خارقة، للعادة ترنح في مكانه واتخذ، كمن يتدحرج على حبل في لعب بهلوانية طأطأ نفسه كاد أن يسقط،فسبقته قباعته،وصورة تسللت من جيبه قديمة جدا يقارب زمنها القرن،هي لنجل السلطان،وهو وسط حشد من الرعية يخطب فيهم،استوى على مقعده ولمع شفرة سكين شاحذة واحدكم، كان يحمل هذا الذي ما تزال رائحة الشراع به؟! ، فاجأته لماذا أحمل هذا؟ رد علي، بسرعة فائقة حاثا الخطى، نحوي قافزا من على مكتبه، كالقرد إذن أنت هو، بالذات، والصفات فلماذا لا ينكر صاحبك هذا، اذن نفيك دليل على وجوده ورجالنا يعرفون حامله، بعد وقبلك، ولكن أنت الذي أحدث القطع، والخروقات الكبيرة بها شاهر خنجرك الضخم، من بعيد، والعالم في صخب يلتقطك، بالعين المجردة.

. أَلَيْس لي الحق في الدفاع عن نفسي، أم له كل الحق في الكلام، كالراوي عن بونة، ومرضها نطق مساعده بهدوء: سيدي ما رأيك لو استدعينا السجناء

هو هذا النجس الآن، بقامته القصيرة، وما إن فكو له القيد، حتى همزني، بطرف عينه، كان بإمكاني أنسف عليه الدنيا، كالفراغ لأرميه، تحت التراب رغم فقري المدقع!هو الآن، بينهم شجع كابوس ليته ولد مشيشة أو القطة الذي كان يقودونا في حر الصائفة، كالقطيع،نحو الوادي،وشفرة الحلاقة المستباحة،بجيبه ولا أحد يتفوه أبدا!! أحيانا، كنت أظل فاقدا توازني أمامه، وعلي أن أرد اللعنات البذيئة التي تصلني الواحدة، تلو الأخرى، من مقامه العالي كالسلطان أتمنى أن يوجد ذات يوم مقتولا وان ميتا، فأمزق جثته إربا اربا، ثم أفرقها في الهواء! خاصة، لما كنا نتشاجر، على جراء الكلاب، وهياكل الجماجم اليابسة، والديدان الخضراء، بين الأعشاش وتحت الاشجار، لكن بعضهم لا يسعني إلا أن أسددله، بعض الضربات الموحشة مجانا لأفرغ فيه غصة اللعنات التي وصلتني من الشنقيطي الركل!! الركل!! ثم أزكيه، بعبارات وقحة...!!!والمرة الجاية نتركك زليط لذة فريدة، وقوية وأنا أرى أحدهم مثلا يبكي ويشهق لكم كم كنت أشعر، بهذا سرت في حالي أشهق،وأبكي! حدث أن أشتكى أحدهم أبي أنهال علي دون هوادة، بالسوط، وأنا أصرخ أرجوك...!!أرجوك...!! بكيت صفعني على خدي، ثم أسال أخي دما خاثرا، وتقيلا!! تاركا أصابعه أثرها موشومة، على خدي،بلطمة قوية،ثم دفعني على الحنفية،كالشاة المذبوحة!! اعترضته أختي الكبرى، بدفء الأم في القيلولة نصبت كمين، كالعادة على مقربة من مدرسة حسيبة، لمحني من بعيد أخبروه، بذلك لاشك... فر مسرعا من الواجهة الأخرى..، حتى كادت

أن تصطد مه سيارة!!! بعد أسبوع أنقضت، عليه يدي من القفا، وأمرته، تحت التهديد، بالسير قدما أمامي، نحو حيينا...داخل زقاق مسدود جاثمة سكانه في قيلولتهم، جردته، بل شققت له جيوبه،بحملة تفتشيه مرة،وجدت عنده نصف شفرة حادة منكسرة هددته،بالذبح على أبواب عتبة زاوية سيدي أمحمد بعيدا عن الأنظار،ثم السلخ أنهال يقبل يدايا سددت له ركلة تحت دقنه ظل يبكي،ويستعطفني طوال المدة! أخرجت في ما بعد كل ما يملك، قطع الحلوى، ولتو سطوت عليها، مع مقلمته، وصور ذويه الشدديين البياض الذين، تبولت عليهم اللحظة، ولكن تنين مطاطي كان يدسه، بمحفظته ياه لأول مرة أراه!... أذهلتني تغيراته اللونية، كالحرباء، وأشكاله ألقيت به عرض براميل القاذورات المنهكة بالوسخ الخاصة بالحي.

وضعت يدي على الطاولة آه...!! من هذه اليد المردة المبتورة الأصبع التي تكدس تحتها الصور، والخطوط المتقاطعة، من حين لآخر، التي لم تشأ إلا أن تخلد بي في كنف معلمة الرسم تعاستي فقط كانت مع حركات قلم رصاص، لطموحي، بسرعة مدهشة تتلاعب، برجفة ساخنة كثيرا ما كانت تحسن رسم الأقضاب، وحيوان التنين مشوه الصورة،وأحيانا نرسم حوانيت المدينة،وجدران دكاكينها الجميلة في أماكن عدة من الطاولة في الصباح رمينا قشورالموز كفخ،للأمرد لانزلاقه على زليج رواق الأقسام،أو غيره فكادت بنتها السقوط!!!! فما ألبث أن ننفجر، بالضحك مع زملائي وعظام كتفي النحفتان تهتزان رويدا رويدا خوفا من العقاب، لأننا تفطنا أن قدمه عريضة مفلطحة

كالنوق فكنا كلما غفت المعلمة عنا فككنا أزرارسراوبينا، ونخرج وحدات الجزر، ونشرع في التمثيل من تحت الطاولة، وفي المداعبة!! بقيت على هذه الحال مشدوها، وقلبي يخفق من شدة الخوف المنمل والعياء يدب في كامل مفاصلي خصوصا يوم أنتفخ قضيبي، وتخللته شيء من التورمات التي لا يستدعي حالها على خير، فبعد أيام معدودات عرضني أبي على الطبيب الأجنبي ارتعش، وإذ به تجحظ عيناه، ويكشف سر ذلك لحظة معه خيل لي أن تنشق الأرض على مصرعيها، لأرمى في رحمها!! ثم وأبعث مع الرؤوس الحلقة المتفجرة من الخنادق، وجسدها في التراب، أو كالجند وألقى حتفي من جراء شواظها الذي يهدد الواحات، وفي النهاية رتب على ظهري النحيف، ودس في يدي حلوة، حتى لا تزداد حدة توتري، لحظتها غبت عن أترابي قرابة أسبوع كامل بل لم أر فيه المدينة،ولا خادمة شجرة لالة شافية الطبالة التي لاتزال ترقص وتشطح في الشوارع ليلا على مشارف الدكاكين،والأحياء تضيق، بالواقفة والمجانين!! منذ قرن من الزمن،فيصاعد منها تسول غريب يخدش المشاعر،وعليه لا يفتأ أن يمتلأ كيسها الخيشمي،ريثما تطفى المصابيح،وتنصرف إلى حيث ...الفقراء، والعبيد، والعرافين كهاف الجن الثلاثة المتحكمة في البلد!! يعني أنك تعرف يالقرع مدينة السلطان، وعرفت أن بيننا، وبينهم، سوى ذلك الجسر الذي يشخر أحيانا،بالمياه كنهر النيل او الفرات،فلما رمتني أمي من بطنها رمتني رمية، مثل البعرة ألغط على حد جهدي،ثم لا يفلحن الأقارب إلا بتزويدها بنوع واحد من نبات

الرمت،والأعشاب المطحونة،في شكل رماد،لتنذمل جروحها...! مع طلي أصفر البيض عليها في كل ليلة ،أما أولئك، بالمدن الكبرى معهم أوربيون، وأجانب، إلا أنهم قوم متحضرون علينا كثيرا أعيهم جيدا، لهم آلات جد متطورة ملاقط، وسكاكين رهفة، بالحامل، بحيث لا تشعر بالوجع أبدا بقيت زوليخة العذراء تتألم طوال أيام الشهر من جراء البضع من أياد لاتحسن، سوى الإجهاض، وبدون علم، ربما سوف يتوارث هذا الغباء، عبر كامل الأزمان، والعصور فالدنيا، مثل اللعب، كما يلهى هؤلاء الصبية، وهم يعبثون بهذه الياربيع والضباب،والقطط، والجراء،والحيات الآلفة. كانت أصوات بعيدة تصلني الضحك، والصخب مع الذي كشف لهم العلامة المصلوبة، وشما على مؤخرة خضرة حيوان العقرب، وعبارة عيش **lavie**أسفل ظهرها، بجانب حوضها!لما، كانت تتبول بالدرب العتيق الوهراني ياه...! سبورة بيضاء قال طفل في سن العاشرة، لغطهم، وهرجهم من هناك، ولم نميز نوعها، مع عواء جروي،ونرفزة مسيو ديسكو فاردي، وهو منتصب على حطام زجاج حانته!وزنين خلية نحلي المتواجد، بصندوقي توفى أبي، وهدأت الأصوات، منذ فترة بعيدة ونادرا من يهدي لي صدقة، أو هبة، أو لدى الجيران الذين عادة ما أنزل عندهم لأشترى لهم علب الكبريت أو خبزة،أو أقوم برعي أغنامهم وتصريفها،نحو الكلاء والعشب،وكنا على ثقة كبيرة،بأن لامخرج لهؤلاء الأجانب الصفر الوجوه،لحسن أخلاقهم أحيانا،فهل استقلت هذه الأرض؟! زم فمك يا ولدي السجان يمر عبر الرواق،لعدنا من جديد في هذا

اليوم الجديد من٠٨ اكتو بر ١٩٨٨ سجانين غلاظ من أين جيء بهم هؤلاء الخشن السلوك ألسنا طينة هذا البلد جميعا؟!! تذرعي لها يا أمي بيضتك يتيمة يالالة شافية يا سيدة يتمها الورع! تزحزحت من اليمين إلى اليسار من،وهادي القرى الى أعالي المدن،ثم تفقأت،بمحها،على طبق الرمل،وبداخلها من لم يستطيعا أن يتتوأما من شدة الحر،والتحرك بنفس الاتجاه الدائري تهشمت، فانفلتا جرذ،وجرادة يحتويان على سم خاص صعب المعاينة،والتصنيف حسب طبيب السلطان،وممرض قصره! انفلتا المح، نحو جدع الشجرة، بسائل لزج مختلط،مع رماد الفحم المطلي به من كف بركة لالة شافية ورسالتها التي لم تستطيع تزحزح البيضة،نحو خط الرمل،للمرة الثالثة المؤدي مباشرة إلى النشاشيب المنتصبة على أقدام الملثمين من اليمين إلى اليسار،وليس العكس؟!!القناص آخر الأخبار تشيء،ببثران يده اليسرى من هباء الفطرة!! رسالتك يالالة شافية النبؤوة نصفها صادق،وباقيها كاذب،ونخشى أن ينزل علينا عقابك إن لم نساعد الأمرد على أمره في كثمان،أو البوح،بالسر قبل التاسعة صباحا!!، وبعد غد، وأنا أحاول التخلص من وثاقهم البارد، ولم أحدد بداية اليوم إلا بحركة نشيش الذباب، واختفاء القطط، وقرقرة الحمام الذي ألف المبيت على حديد عقارب الساعة الكبيرة، والضخمة، للمدينة لشعورها، بالأمن هناك من الأيادي التي قد تنقض عليها من الخلف، و تمشطها في يوم ما!!

كم أحس، بالجوع والألم لما تصل العاشرة صباحا لم أكن لحظتها تناولت كالعادة، غير قطعة خبز شعير يابسة، كالخشب توخز حادة كالمسامير، وممسوحة، بشيء من الذهن، ثم ألوي، في جلبابي، وأتدفق مع المنحدر رفقة زملائي في لغط كبير! تغيبت عن المدرسة أسبوعا، ثم عدت، لأترابي أن نطلق، عليه ذلك الاسم الغريب سمكة الدولفين! لحدة ذكائه، وبهائه، ومساعدته لنا، وضعت القلم تحركت مشاعري، نحو ريمو، والنساء، وغالبا ما تصعد من على المصطبة، وتترك ساقها الممتلئ، بطريقة جانبية. كان البعض يقترب، ويدس رأسه اسفلا ليرى ما يراه المحتلم؟! وآخر يمنعه ضيق الموقع،تيار جارف ظل يشعرني بإرادة قوية!! نحو اللعب بأقضابنا، وممارسة القبيح الممتع، وقت الاستراحة في المراحيض تلك التي كانت نتنة قذرة تتحرك فيها الصراصير، والحشرات،والزنابق كالشاحنات أنتظر هذا الماء السائل الساخن المهدر قبل بلوغنا! الذي هو زوغان متعة الفظيعة قطرة...!! قطرة...!! امتلأ به فراشي الخرق ليلة الجمعة...! أن كنت يوم الخميس خطفت بغته صورة جارتنا الأردنية الأصل، وهي تتزين، لزوجها ملقية قد ميها، لدفء الشمس، فوق سطحها المنخفض علينا بعض الشيء تحتفظ بها المخيلة جانبني من كان يقاسمني الجلوس على مقربة من زاوية حرة، ربما تكون خنفساء يا للكارثة شتْ...!! شتْ...!! الخنفوس، حتى الأحياء غزاها، لكزني حقيقو بكتفه المرأة التي وجدناها، بزاوية سيدي يحي الزواوي بدأت تكثر فيك التحديق،للمرة الثالثة،وكنت لم أراها،منذ أن خرجت من سجن

البرواقية لقتلها،لطفل،ونصل مخه لأمر خطير للغاية! لكن صورتها المخيفة لم تغادرني لحظة شراستها مع القاضي الذي حكم عليها،بعشر سنوات سجنا نافذا ما هذا الدوار الذي ينتابني الأمر لا يهدي على خير..قرون الزلازل على الأبواب و نظراتها الناعسة تنام،تحتها نكسات الأرض مقشعرة يا وخذي هذه الكلبة تحب توريطي...!! ثم وإن دسست نفسي بمزبلة يقذف بي من يشاء أو ترميني دورة الأرض حيث تشاء،فما بها تلتفت من حين لآخر،وعمري لا تربو ،عن الرابع عشرة ألا تستحي من نفسها بسذاجة بريئة ظننت أنها تريد المضاجعة ياربي واش هذا ثاني...!! أنى أشعر بالدوار، والحمى، والتقيؤ...!! وصور غريبة ما تزال تزورني، عاهرات عاريات يرقصن أمامي، لقد أترث على نفسي القرفصاء، بعد أن دبت في نفسي عودة العادي.. كانت لاتزال في منتصف الطريق نهضت اتجهت ناحية دورة المياه،لأفراغ رغبتي الجامحة دفعت الباب،ثم أوصدته خلفي،وانقطعت، على عالم ينتهي،والموسيقى الوهرانية تصلني خافته تنفست من أعماقي،وفاجأني صوت خشن يا أخو...!! أفسح لنا الطريق، وأحكي على رأسك، وانك تكاد تسد علينا الممر...قفزت مسرعا ليس من الصوت الخشن، بل لما عادت لي فكرة الزنزانة، والجرذان الخشنة، والجدران المخربشة، بالأرقام، والخطوط، والكلمات الساقطة!!!اشتهيت أن أواصل التعليم بالكتاب، لكن حواجز منعتني، حينما ذهبت رحت أكتشف فيه ازعاجات عدة...!! وهو يرمي الخطى إلى الأمام وبدون أية جدوى، كانوا يدفعونه،للشجار معي في صغره،ورغم شؤمه،كان

على أحسن ما يرام مع الكل إلا البعض الذي كان يدس له شرر،وأحقاد دفينة خصوصا،وأنه كان يتمتع،بجمال فتان،ويحظى،بحراسة ذويه من كيد الفتيات ونزقهن قامة متوسطة،وشعر فاحم اللون متكور رغم البشرة الداكنة الوشيكة،على حلول صورة الرجل الأسمر التافه فيه،لكني لا أقصد ولد مشيشة أو القطة المسحور اللون الذي حتى أن فتيات معروفات اعتدن عقد معه علاقات سرية خشية من إخوانهم فزجرهم لهن فيسدون أفواههم بأياديهم الخشنة البدوية و هن مدبرين في أماكنهم نحو خصورهم بعضهن يشهق و الأخر يهتز من شدة الضحك الهستيري الممزوج بالحياء من عار القبيلة المعاشة على ماضيها التافه إراثة أب عن جد ..وارغم ابني أن لا يتأخر،وربي العالي!! زاغت بنت العباسية على أمها مرة أخرى، وهي لا تربو، بعد عن المراهقة الشبقة، وبعد برهة انكمشت، ولم تتوان أن هزت أركان الغرفة، بصرخة مدوية نهضت مذعورة رشتها أختها بطست ماء، وجدته في طريقها، وهو ملوث، بمداد الوشم.

ـ كلا...!! انه أعرج ومسن الآن!!! لم أستطيع رفع رأسي لشدة،بشاعته يتجمهر،وسط كوكبة من الدجالين! لم أجيبه، فنهضت، بعد مشقة مشوشة، برباطه ولو أراد لأخذني معه،ولو ساعة واحدة وبينما،كانت الطفلة مهسترة،وتترنح وتتهلوس في ثرثرتها،في الليلة التي برز فيها القمر دائريا تناوبا مع الشمس لسبع أيام،كما ظنوا أهل القرية السذج الأبرياء...هم!! ومرة على المرة يباغت الدواب الرابطة، بالسطوح فيضفي عليها ظلال أوراق العنب

الكبيرة الموشومة ظلالها، على الجدران التي يغطي النحل الباصق جلها تنتهي إلى الأحواش، عبر الجدران،كالسنيما التقليدية من فضلك،بإمكانك رفع مظلمة إلى رئيس القراصنة،والولاة الصالحين احتجاجا على تأخر السفينة،والقبض على كبيرهم الذي يود تحطيمها،وأين كنت و...و...، ويا سيدي الصالح؟!لتخلصنا من كيد الزيف بفضل بركتك مع الله،والدراويش الممتدة الأيادي،على مداخل المساجد وفقط...!!

ـ رد ولد مشيشة وفي الحقيقة لم يعرف بماذا يرد،عليه فقبول مصاهرته،أم لا... خوفا من شيخ القبيلة؟!! ليس هذا وقتها يا شاب ولا تنزعج فما نزال مع قضية السفينة،وبعون أحفادي الرضع نقدم لكم حتفها،قبل وصول القراصنة نحو الشط الذي غادرته طيور النورس في هذا الأسبوع فقط لأشتمام فيه رائحة الدم،ورائحة الأحذية المطاطية معا!!وضع يده على رأسه،ثم على جبهته،وحاول أن يتجنب ضوء القمر المتسلل إلى بناية المسئول الرابع،عن الجواري في البلد كلها،وقصر السلطان...! ليس هذا وقت الحتف كرر هذه العبارة ثانيا وأخيرا،وبحركة من قندورته دبت صورته زائغة،على سعف النخل ابتعد، دون أن يشعرهم،بما علم به،منه من عدم قطع سعف النخيل، لاحتفال به أحفاده، على مداخل الدشر وردم البئر خلف هذا الجدار الصلصالي اللون،والبيوت المكثفة،بالطوب،والسعف اليابس والصخور!!التي غالبا ما كنا نصنع نماذج صغيرة،مثلها تماما نحضر التراب،والماء،وكان ينقصنا،سوى أيام العطل أيادينا متجهة صوب الدعاء أبدا!! وبعد صلاة العشاء تقليدنا لشيخ

زاويتنا والدعاء مع بلغوث نحن!! لا مع نائب القصر،والصابر،على ما قدر الله مع الرعية! وتشابهه مع الأمرد الوقح!! وأن يكونوا من الذين يرزقون حسنات على قدر ابتلاء اتهم،وهي من تخفف الذنوب الكبرى والخشية من البلاء قامت،بنفس الفضول بخشه رغم أميتها المتدفقة لتسأل عن الفرق،بين البلاء،والابتلاء؟!!!لأنها عاشت تعاسة كبرى،بينهما بتيهرت،وما أشدها كراهية،للموت،وحلكة الظلام،حتى كادت الكفر ذات ليلة،وبعد العصر مباشرة،وأنا أرمي،للحمام فتاة الخبز اليابس،بعناء كبير وأتهيأ لرسم لوحة تذكارية،لمليكه قريش، وبجانبها بوحيرد تفتل شعرها هل عرفت الفرق، فرق ماذا إذن...؟! لا ينبغي لك نسيان الفرق،بين مليكه،وخضرة،وما يفطن باقيه إلاالراسخون في السياسة،وضيق الحزبية،ودونهم سخونة في التبصر أي بخبايا البلد.

. ولم أفتأ أن أرسلت ضحكة عالية،لوحدي من عدم امتلاك نفسي،حتى كادت الفرشاة السقوط من بين أصابعي،والألوان تتقاطر،على معطفي!! وأضفت لها خروجا عن الحديث أنا متأكد من انه لا توقعني اية فتاة في حبها أو تغريني فأنا مختلف عن الجميع فشخصيتي كحدبة الجمل أية مخلوقة ليس بامكانها اثارة رغبتي فيها،وعصي الفهم،على العقل،والذاكرة أيضا فأزدادت نفسيتي تعقدا!! كمثل ذلك بلغوث التي توجه،إليه الأصبع، ذات البياض الناعم المستاءة مني؟!!! فعلا ما تقول يا وخذي على ولد خضرة الأوشام الطرشة

بنت العباسية بنت فيلاج اللفت القحة مسكين؟!ولطمت خدها بكفها واعتدلت في جلستها!!

ـ يالله ويارب!! يا سيدي العالي!!احفظنا،واللهم ما نطلب العفو،والعافية وما علاقتي،بهذا النكد،قادة الحلاق الذي خانتني معه المخيلة،ولم يسعفن الحظ وأن عرفته؟؟؟! ربما الخبر أضطرب البلد وغدت،بين الحقيقة،والدعوة إلى الافتراء.

ـ أفصحوه عن علاقته بالميناء،والسفينة،وعلاقة الثالث،بالرابع؟! بلغوث يقسم بأغلظ الأيمان على أن الثالث لم يلتق به،منذ قرون،وبل هي مجرد أشهر أكثر من القليلة فعلا تغذى معي،على حين غرة أستفسرني ما تأويل قريتكم لما همس به السلطان، كلعبة طفل مصنوعة من الورق المقوى انطلاقا من نقطة البدء،أو كزلة لسان،وخفية،عن جدران قصره،وفي التناوب على خشب عرشه،ولو من الرعية!ولكن في مدة لا تفوق غضة الطرف،أي ريثما يحضروا له أنبوبا هرمون الميلاتونين المكافح،للشيخوخة!!والسلطان نفسه أيضا لا يعرف،في أي جهة من القصر هو الآن،يبصر غرف رخامية لا يدري الأولى،أم الثانية،أم التي تواجه الحديقة! بدأ يشعر،بالظلام،والدمس،كمن وضع على عينيه خرقة عصابة سوداء..الرعية ترشق كلابه،بأحذيتهم البدوية الصنع،وحرسه،والبقية من الواجهة الأخرى ترطم،تمثال نسره البرنزي كتمثال نسر قوم نوح،وصخوره الشبيهة،بجناحه،وبلون سطح قصره..كأنه ورق الدلب المنفر،للخفافيش،والذي عادة ما يفترشه،لحماية بيضه،وفراخه،وأعوانه

البعيدين جدا،عن القصر يوجهون فوهات،بنادقهم صوبه،ومسيو ديسكو فاردي يعترض طريقهم،عبر الرواق الثالث للقصر.؟

. مدد رجل التفتيش بصره طويلا؟!ودون أن ينظر إليه قال،بإمكانك عد حركة الشريط من أوله إلى آخره،حتى تصل إلى منتهى الأمر وإيصال كل خط مع الذي يليه..كتلك القضبان الغليظة،وحق محمد لا أعرف ماذا أستردد في رأسي،ولامخيلتي؟؟؟! والآن أفكر إلا في وجوهكم ألما وعرقا،وأنتم تريدون إلصاق ما ليس مني،وهو يفلت مني رغما عني.توقفت العربة إلى أقصى حد ممكن،بزجاجها الغائم،وأضوائها الخاطفة،وتحمل خمسة أشخاص من رجال السلطان يبدوا أنهم،فقدوا الثقة،حتى في أنفسهم نزلوا،بخفة تحسسوا ظلالهم،وبجدارة كبيرة تمكنوا من توقيف أية حركة من يد قد تستمر في الركض على خطوط التوشيم،وإبرها!! أو بسمة،قد تصدر،عن الزبائن،بالملهى تنفس الصعداء سرا مع نفسه،وبلع قطعة صغيرة من المخدرات،ثم قال بداخله..اني لم أكن،هؤلاء لقد تعرضت،لمضايقات عديدة نحن أيضا أبناء هذه الطينة وألسنا،سوى من طوبتكم،وأبناء عروش كبيرة حدث نفسك في الخيال يا واحد الخنزير الأرض أرضك،بإمكانك أن تقهقه،حتى تبرز أضراسك الخلفية،وتسقط على ظهرك، كالغصن المكره على السقوط! فبعد نصف يوم دارت إشاعة الأستفحاش في الرعية،ثم يعمد إلى قتل صغارهم وكبيهم،بأعقاب السجائر،والمدينة تتمخض حزينة،ببللها كالعصفورة الجريح في طرفها الآخر...!ويقال أنه كم يشعر بنرجسية فريدة،وهو يصرخ عليهم،وعلى جثثهم

في حركات دائرية محورية كبيرة مملوءة، بالدماء،والقيء،وبين يديه قط صغير يود نصبه،ككمين للأمرد؟!بعد أن قيل أنه، بجحر،ومعه متسع طعامه،وشمعة هلك نصفها تتدحرج فوقه،كبقية العامة، وصغار الخلق..ضربوا رجال الملك طبلهم،فلم أجد،بالسويقة سوى موازينهم،وأمتعتهم،وخردوات بعضهم متناثرة في كل صوب وحدب،وأثر دماء حجامة يابسة سائلة من على طست حديدي مقلوب.

. شددت مشورة دائرة السلطنة الحالية،في السنوات الأخيرة،على تطويع ألف كلب ألماني،للقضاء عليه،وقرعت كل جبالها الصمة كالجرس،بواسطة حرب ضخمة تفتت الجبال،خلع قندورته التي لا ينزعها،حتى في فصل الحر،وأقتعد الأرض لله المصير،واليه المعاد وهذا قدري في الدنيا،و آخرين يعمد على تغطيسهم في برك من القطران المتساقط،ثم يعلقهم على شجرة الزيتون! لما يعادوه الندم،ونفر منهم على أغصان الزقوم،بطريقة وحشية وأتهم،بأنه قيد معهم أيضا شخصا غريبا يشبه الأمرد!! منذ قرون دار إلى أصحابه،وكأنهم معه حقا وأمر،بالتوقف عند المغيب ونفطر عند مغارة الذئب،وهو كثيرا ما يحدث شياطين تعمل على تكدير صفو الأبرياء في مواسم خاصة،وفي ليالي فرحهم،وهو ما وحي لهم،بأنهم تخيلو سرق صورها الغريبة سويسري يشبه غرافن ريد منذ ١٩٩١خلسة عنهم،وعن الأمرد،؟! والذي رماها،بساحة أودان هو محمد السوداني،لتوريط المارة،ببشع الصورة رفقة،عيونهم الشاهدة،تحرك الجراد،وعادت إناثه وهو،كالمضلة على بعض المدن من البلد الكل

يسمع،بهلعه وطوافه،كالطيف في أقل من البرق أشيع أن أمردا تسلل،نحو إحدى الأحياء بحثا،عن بما يشد به متاعه،على ظهره،بيده مبراة،وقلم ضخم،وقطعة فحم...!!والمدينة تحيط به من جهة واحدة تقابل جبل الأوراس،عند ما رأته... ،لأول مرة صبية.كانت مازالت تبرعم فرت راكضة،كحصان اللعبة المطاطية،باتجاه مبنى قريب من باب خفارة أعوان رجال السلطان وحاجزهم الأمني،وقريبة من زاوية سيدي أمحمد الوهراني،وهي تقول،و تصرخ : رأيته !! رأيته؟!! الأمرد...؟!! الأمرد...؟!!هو...!!هو!!. كان يحمل مصباحا باهتا صدئا،بقامته النحيفة،وأقدامه المفحمتان طينا تغادرا آخر دخان القصر،وضحك الحكاية،وسحرها يرواده من نقطة البدء كلما تزمتت شفتيه! مع أنه لم يكن هو،تحسست نهديها،وبصقت بينهما،علها تسكن من هول انبعاثه...! لم أعتن بها حيينها،ثم انطلقت بجهة أخرى لسيدي أمحمد،حيث الخلق،وكثرة الراجلة،والشارع ينحت فينا حب الفضول،نحو الآخر بصوره الجميلة... بقي يهتز،ويرتفع،ويقسم بنابه،على أن أرصفتهم،في نواحي عدة كلها مصنوعة من الرخام،والزهور تربض على دوائر مربعة،ومستطيلة والمياه تجري،وتجري من تحت ومن أنابيب عجيبة! بعيدة عن القصر،وتفيض بشكل منتظم،وكأن خالقا أسحرها على هذه الهيئة، ليتمتع بها الغادين،والرائجين،الأقطرة تنفث من ورائها دوائر كبيرة من الدخان،وهي تمخر المياه،وهذه الفلك الراكضة على مياه،واجهة البحر،أو المرسى الكبير،ولاأحد يأبه بك،أو يشغل باله بالأمرد بوحنين الذي أصاب السلطان

بزكام خطير الكل إلى شأنه،ولكثرة الأماردة عندهم؟! ثم ما لبث ،وأنه لما ينسدل الليل،ويهدأ الخلق،نخلو مع بعض الزملاء على ربوة هادئة تنضح رمالها،بضؤ القمر،أو بغرفة بلاطو،لدى زميلي سليمان (مياحي و السمر مع الباي واحمد مسعود وكلالي مسعود السمر الى ساعة متأخرة من الليل صيفا من سنة ١٩٩٣ وجامعة وهران) وفي الشتاء،لأول مرة يرى الثلج ،أو القطن، كما..كانت تسميه له جدته الماء الجامد الملقى على مصرع الطرقات،فهو مذاق حلو يأكل هكذا،بالمعاليق قالت ألا يعد هذا من غرائب الحياة!! ومازوت الطباعة،ورائحة الصحف طازجة تلوث الجو،وآثار أمرد شاحبة،وهي على رصيف الطريق بدت جديدة،و رزنامة كتب ناجية من حريق صيفي على ظهره!! .

ـ ثم لم أتوان أن أسدد صفعة مازحة،لأحد المرهفين لي السمع،أنزاح عني قليلا،واضعا يده على مكان الضربة،وترددوا جميعا على أن ما أتفوه به على عذرية المدينة،كذب عذب،ومجرد هراء! مثل الأمرد المجهول المرقد تجندت السلطنة،ورشي رئيس الحرس،لكون القضية شبه مفتعلة دفنت أيامي،مع الأوراق وأنا..أتربب بنفسي،كمصصف،لديوان المكاتبات منتشي غضبا خاصا،وأعلم هفوة إخفاء المحاضر،والوثائق النفيسة من الأدراج،والبدو الرحل يغدون في جيئة،وذهابة! وزادهم على أكتافهم،قارورات جافيل،بها كمية من حليب البقر،وخبز،أو طراميس حافية القمح خوفا من مكر أهل المدن،جاءوا،لأجل اخفاض عليهم المكوس التي أتقلت عاتقهم،أو بعضهم

يود تقديم مجرد هدية تهنئة،لنائب السلطان على زفاف ابنتيه التوأم من أولياء العهد،واحدة زوجها،رغم أنفها منه بيد أنها،كانت في حب زهير الأسود،وكم من مرة باغتته،برسائل عشق مطولة،كالقصيدة،ومطوية ألف طية!! لعدم وجود طلع الزهر الأبيض أي زهرة النسرين!! بدل منها،تدسها في كم ابن أخيها،وتوصيه أن لا أحد يراها غيره،بعدما ترمي له،بين شفتيه حبة حلوة، ككراء له..تضربه على الكتف فيغدو يقلد الجدي الصغير في ركضه رغم عدم تمتعها،بذلك الجمال الساحر،وهي على علم،بأن له علاقة من فتاة،بشمال البلد،وتتمنى الإنجاب منه،وتوعده،بالرحيل، وإياه،نحو غرب العالم! يا للأسف، حتى الحاجب تحول إلى مجرد آلة تتحكم في إحصاء زوار القصر،ولو جاوزوا،برقمهم الآلاف من المعوزين مع كلابهم،وبهائمهم،مثل هذا الذي ينهش كبريائي...!! لماذا أتردد...الآن في الدخول،على مسئول نجس من لحم،ودم مثلنا ،وأفشل في بناء العديد من المقدمات،ونحن في قاعة الانتظار آلم ينتفخ بطنه،بعد أن استولى على كل الأراضي،وباعها،بثمن بخس نفس الكلام،واللكنة كتبت فيه عدة أحياء،وصحف لإدانته جماعيا،كم من رسالة،وشكوى انتهى مصيرها إلى التمزيق،ثم سلل المهملات! انه لايأبه،بوجودك،وأنت أمامه على أهبة الوقوف،كالمتهم كلمة واحدة أعتاد ترديدها،للزوار الشهر القادم آه...!

أنتظر الملفات لم تدرس،بعد مع ورئيس البلد في حفلة القصر يا،للوقاحة...! والأمر لم يكون معي أنا،بل هو الذي خلفته بعدي؟! وهذا الملف شوية فيه

تخص أوراق الثبوت من السجل يا ويلي! أسرة تتكون من خمس عشرة فردا مصيرها،تحت القصدير والحديد،وغياهابات الظلام!! تترامى الأحذية على مؤخرة أقدامهم جاعلة شكل قبور،وثمة القطط تلعب على الأغطية،والأواني المنزلية المتكدسة،فوق بعضها البعض،ومع ذلك تتأخر منحة الأب المعاشية،بأيام معدودة، فتلجاء الزوجة المسكينة، لتلتمس العذر،والطلب لتعد،لأعداد وجبة غداء متواضعة،لأبناءها فتقول،لجاراتها أنهم أخطئوا له في الأوراق،من قبل الهيئة المعنية وأرباب عمله،وعليه تأخرت هذه المرة،وهي ما فتئت تتحجج،لهن وتضغط على مشاعرها،بأصابعها الرقيقة؟! وتتحدى عنف الموقف،ثم لا تجن من هذا سوى طبق من الفرينة،وقليل من الملح ونهديها متراخيتان،كالعجين الطري،وعلى حواشي رباطهما أثر المزيرية،والوسخ...إن اقتربت منها ربما تنقل في غيبوبة تامة،وبصوت مرتفع تصرخ،زهير يا واحد الكلب...!! هبلتني،وهبلت معك أيامي الكحلة...! أحضر الماء،وأغسل علي رجليك،يأخذ الطست،ويظل يرش على وجهه،وهو يتمتع به،كرغبة تكتسحه يبلل قميصه الشفاف، وينحشر، بداخل غرف طوبية ساكنة تبيض فيها إناث الحمام،والدجاج،واليمام،وبعد قد،وجد شغل حراسة بعض الأحياء الثرية..بلغوت تخطاني، ولم يرد لي تحيته،كالعادة، هناك شيء لا يبعث عن الارتياح،والاستقرار شوارع تنبعث،منهم رائحة كريهة تزكم الأنوف هذه المرأة لعينة،وما أكثر ما أعجز من هذه اللحظات الشمطاء!! غريب أمر هذه المرأة التي أغرتني،للمجيء لها،بقطعة صابون التي يغسل بها،أي ميت مع قطعة

صغيرة جدا من كفنه،ابنتها مريضة،وبشعة في وجهي،وتلاحقني،بدفع من الطمع،والنشوة النفرة المتوحشة،بيني،وبينك جبال يا بنت الناس!! في الأسبوع الأول من السهر الذي أكثرت فيه غرف مهدمة على مقربة من المقبرة،غارت علينا أمطار البلاء،وتداعت البيوت،بلا جدوى أغرقت الأحياء في طوفان مشوب،برياح سفاتة اقتلعت النخيل من جذورها...!!!أسرعنا لأفراغ بيوتنا من المياه الكدرة، ونحن نصرخ!! ولاأحد عرف من المتسبب في هذا السخط،حتى وزارة الري،والمياه،والبيئة،والسدود،والمختصين في قياس الرياح خلصوا إلى خلاصة،غير منطقية الطوفان في الصيف،وما هو في غاية الحقيقة!!إلا عندما تقدمت أرامل الدشرة،نحو سهل الرمال المحادي،للسفح،وصرخن في تذرع كمشهد يوم الآخرة:

ـ سنتقرب لك،بألف خبزة شعير،وكانون،وكومة حطب،ولحم رأس الماعز،وعظام السمك،وجمل،غير نضو ينحر على جدع شجرتك يالالة شافية، قالت القرى لحظتها،لقد روت لنا كل شيء،بسكونها،وصمتها الرياح التي بدأت تحرك أفنانها رويدا...!رويدا.! لئن لا يحط عليها شيء،فمتى أغضبناك إذن؟!! يالالة،رميت فرشاتي،وفكرة الجائزة،ولوحتي،ثم أقفلت أزرار معطفي على عجل،ونهضت، لغلق الأبواب التي تكسر بعض خشبها جراء الرياح الهوجاء!!!،وأنا أعلم أن شيئا ما قد حدث! حسب جدتي،وحسب ما يشاع،إذن نهديك شموع جديدة،ورسائل من الحب والخضوع،والطاعة،والولاء،ونحن ما نخشاه أن تعود بنا،بعض الألوان،أو من

كأي رسام مريض نفسيا،قد تعبث أشكاله،ويعود بنا لونه الطاغي،على اللوحة إلى دقائق الموت ساعات٥ جوان ١٨٧٤ أو لحظة غرق السفينة!!وبجانبها كناش نصفها مبلل،وآخره ترفرفه رياح مجهولة،فيظن،بأن كل شيء منك يا عزوز الثرثار،وسنسعد،أثناء رحيلكما إندثارا،تحت التراب،لقد سرتم أخطر من الكسوف،لذا،فرجاله يفتشون عنك،حتى بين غبار الأوراق،لتحريضه،طوال ليلة البارحة،على عدم تسلمه جائزة القصر.

ـ من يريد أن يعرف،ويغتصب الحقيقة يصاب، بمكروه،وضجر القدر المزمن خصوصا،إذا تعمق المحكي في التفاصيل الدقيقة،دون جدوى،وتغمرني السعادة والضحك سرا،وهو يتشدق،بأنهم لو زجوا بهم في الوديان بعيدا،عن البلد وإلا يتعرضوا، للمضاجعة من قبل المساجين، وعلى أية حال لا أحد من مهمته إيقاف رؤيا هده الطفلة!!!ونفي التهمة علي ما أعظمك أيتها الطفلة،وتنبؤاتك عن ما سيحدث إلي،ولهذا البلد، بإمكان زيارتك،والتبرك بك قبل،وفاتك بمقدورها هزم العالم،وهزمي بكذبتها العذبة،والباطل بجانبك ،ولو من كبراء الخبراء على الأرض،والألوان،والمشاعر!! لجس نبض دقات القلب هل توقف،أم لا؟!!!مثل ما فعلوا لفرنود الفيطو مسكين الفرنسي الأول المحكم عليه،بالإعدام عام ١٩٥٧ بسجن بربروس من جراء حبه،للمدينة الجزائرية العذراء ومدنها الفاتنة،بأشكالها،وبأشكالها الهندسية،لكن يا قويدر سقط... سقوطا حرا...!! خنازير أنهكتني إلى حيث أموت على،وحلها النتن وداعا يالالة شافية أين هو بحثوا عنه؟!! لا يزال القدر يشده،بقوة المصير؟!

تبينـــوا منفـــذا واســـعا اندفعوا،بالعربـــة التـــي تجرهـــا البغـــال تعطشـــوا للضرب،والتعذيب،وترث البطون يلطخ جدران الزنزانات من جديد!!فأخذوا بلغوث تكشروا،على البقية،بمهارة لذا في الصباح أغلقت الأبواب،وشغل بال السكان،حتى لا يقتنوا جريدة البلد،لتبتاع جملة،لبائعي السمك، كأعداد قديمة،بألوانها الزاهية الطيفية كل شيء مغلق...!! توقفت عن قراءة بعض الروايات،والكتب، كنت أسجل تحت كل فقرة تروق لي خطوط حمراء كمراقبة لزوغان متعتي مثل(ألف ليلة وليلة وآراء القديس،أوغستين،ولا حدقت مرة واحدة في لوحات سرفادور دالي،ولا بيكاسو، كما زعموا،ويزعمون،عني هؤلاء؟!) وغيرها،ثم رأيت صديقي ينظر إلى بعينين غائرتين،والى عباءتي الحائلة،والى نعلي المشدودة إحداهما،بخيط قرنب،وشعري المكور، كلما اقتربت، منه أستبد بي القلق شامخا يأسه على فرحي الدائم رغم لوني الغامق،وأسناني النخرة!! كانت سلفحاة تتحرك على الأرض داخل بيتنا لكم كم، كنت أخاف منها،وهي تزحف على بطنها...!! قلت في نفسي لماذا لا أحبها؟!لقد ورثها لنا جدي مات هو،وماتت أمي فاطنة بنت سعيد عرش الرزوقية الثورية،وهي ما تزال على قيد الحياة،لمدة قرون من الزمن،لتعميرها،مثل طير النسر؟؟؟!،ولاأحد تريده التركن في مكانها أسفل مصطبة المطبخ ... دقائق أحسست،بالفرح يصعد من جوفي!!!،وأنا أخال رغبتي تلقي بها في النار،وحتى مذكرتي التي اعتدت أن أسجل ،عليها يومياتي،وأرسم حركاتها تمزقت أمام عيني...! مزقها ذلك المارق علينا الطارئ

بأشيائه،ثم ألقى بها في الهواء لتنساها،وتنسى أمرك الغريب،وكرهك الشديد لشهر أكتوبر.. كان الفضول يدفعني دائما،نحو الطاولة،والعد يركض من فوق،وتحت، نحو...!! فبدت لي أن أحمل مقص،أو شفرة!!! وأرسم،وأخرط بهما،للذاكرة،علو الأبواب الموصدة،وهتاف الآلاف الشوارب المدفون زغبها،بين لوالبها الكبيرة الصدئة بدل الفرشاة،و لكي تستدرك أيضا ماغاب عنها لحظة تحرك الأرض من شمالها إلى غربها وتحطم إناءنا الفخاري عن آخره!! ساورتني معجزة،مثل الأعزب الذي شارف الأربعين من عمره تائها،بين المدن،وحيدا،وحقائبه على كتفه،وكتبه،وأقلامه تلطخ جيوبه.!!!أن هذه الطفلة لاتعرف التربة والغميضة،واللعب،مثل بقية الصبية،أم أرمي ما أصنعه،للسلحفاة لتفعل به ماترى،بغريزتها أضع لها أكلها،على أوراق مذكرتي الممزقة،ومعها نصف كتاب مبعثر الأجزاء،حول أبي زيد الهلالي،وعنترة،وسيف بن ذي يزن،وأحاديث اليمن،وسبأ،وأحاديث السفياني الذي يغزو جهة الخليج وتاريخ طير النسور زحفت،نحو البهو،والزكم المخنق يتسلل لي قليلا منه أخنق صدري،باستمرار،كمن حذرني مارق ما!! لا يمكنك صنع،لهذه الذاكرة،بالورق المقوى كلاب،أو ذبابة،أو جرذ،ومعه جرادة،بنفس المقص والنحل يحوم عليهم جميعا؟!!لئن تلهى بها!كما زعمت أجلس،بالقرب من مكتبك،وأسحب كتاب الحيوان،للجاحظ ربما يزيل عليك حيرتك،والأمر سيان.!

. قلت كيف،للعالم،والسلطنة أن تصدق ما اتهمتني به هذه الطفلة الوغدة يا جدتي فضيلة بنت أحمد!! وفي جسدي الألوف من المشاعر الدائبة

والمقموعة،ولاأحد يعلم بها سواك،والأمرد بوحنين إن هو على قيد الحياة،وربما ابنيك سالم والمبروك،اللدان توحما بهما الدهر،قبلك على سهول العبادلة،وصخور زوزفانة،وعبد القادر،ومحمد،ورغاء نيا قهم! كلاب الفلاقة،كما سمتهم فرنسا جميعا،رصاصتهم،وشرفهم لا يسقط في التراب أبدا!!! رتبت على كتفي مواسية لما ذكرتني، بعمي علي الذي سقط شهيدا،على وديان زوزفانة من سنة ١٩٥٨،وأنت قالت الفتاة،هل تحبني؟؟؟! لو لم ألطخ عارك،ومداعبتك،بهذه الإشاعة أقصد تحبني من لحمك،ودمك،وشرايين قلبك،وأكملت، بنفس النبرة،وزميلي ينتظرني على مدخل سفارة إسبانيا ما أمكرها!! أكثر،حتى من ذلك الأحمر الوجه زميلي المجذوم،بلون أجداده،والمتفنن،في تربية الكلاب،والجرذان والله أول من بصق في وجهي،منذ أن بصقتني أمي هو أبوه التي،بسببي فاجأها مرض مزمن،وتورم حب كبير،على جلدها،لقلة وجود عشب خاص،لئن تتشفى في ذاك الفصل مسحت البصقة،وسألني،وأنا أجيب لا أعرف هذا الشخص أيضا الأقرع الزوفري المصاب، بداء البار كسون العصبي؟؟!والتهمة ملفقة من آخرين ...!!!الذين قالوا،للقراصنة مرحبا لاضرام النار على السفينة!! لزوال أثر الجرم المقترف من طرفهم!!!،وعلى أحلى زليج السفينة المستورد من البحر الأبيض المتوسط،ومثله،بالذات تمدد،عليه جسدي،وأظن أنه خاص بالساسة،وذوي الجاه الذين يحرضون الرعية على أشكال جميلة،وسط ساحة القصر،كالرقص عراة،وجلد ظهورهم،بأنفسهم عقابا لعدم صونهم،للسلطنة حق

صونها!! كما فعلوا كبار شيعة علي لتقصيرهم في الدفاع المستميت عنه؟! ويا لالة شافية انظري،لهذه المنافي! أثر أقدام غرباء تأتي،وفي جوفهم تنام الحوارق!!!،وثمة نساء يجهضن أنفسهن،بسكاكين،وظفائرهن إن شعروا،بالمحبول ذكرا عكس نية الملكة، ويقل الهرج،والمرج،لما تقترب الحافلة من جسور البليدة،والعاصمة صاح القابض المرشو من طرفهم!!لابد أن نصبر ارتفع شخص بدين ملأ،بجسمه رواق الحافلة،ولحي يابسة،بينما أعين الراكبة ظلت مثبته الرؤية على سلاحه المتطور،وضع حافة السكين على رقبة شاب!! وزمجر فيه ما رأيك لو أوقفت لك نبضاتك؟!! رد الشاب،وعروقه ترتجف،وتدفع دما مضغوطا،وألفاظه تبعثر إحداها الأخرى:

إن توعدت فعلت،وان وعدت وفيت،وان تركت عفوت،وان يسبق عزمك تناول ورقة خطية وراح يلوح،بيده يا ناس عدوا إلى ربكم يرحمكم دعوكم من العهوروغيرها أسلكوا طريقا خالقكم إلى الجنة!!!! بشيء من الإبليسية هزأت منه أم الطفلة وشعر بشيء على، غير ما يرام وهتف: ألا تعترفين،بحكم الله وماقدر شرعه،أم مثلكي،مثل ملكة القصر؟؟؟؟كان الملتحين في مصطف يمتد من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام أغمي عليها انبسطت،تحته تمدد جسدها حاول تحريكها،بحذائه الضخم!!!،ثم حاول لكنه كان واثقا من أن عسرها أشد من يسرها انتشرت شارات العيون أشار،بيده صعد ثلاثة على أيديهم الغليظة أطباق مستديرة إننا لكم قالوا وراحوا يوزعون عليهم أربع حبات قيل هي من الخالق خصيصة،وهبة لهم

حبة، للواحد من الثمر وأنابيب صغيرة بها ماء عطر،ثم نزلوا ونزل معهم،ليعلن عن إمكانياتهم في إعادة الخلافة من جديد خلال ثوان فقط،ودون تحطيم أبواب أو أي باب من أبواب المدن،ويفرض،عليكم أميرنا الروي،حول الله ،والآخرة،ومياه الشلالات فوقكم يصب من كل فج وصخرة وغيرها في كل ليلة،قبل النوم،ومنذ الآن.

ـ امتثل القابض،بغلق الباب بواسطة زر أحمر اللون،وعليه أنطلق في ذلك الليل الغبش السائق يمخض عباب الرياح،وهويزمجر،ويقسم،والله ورأس ،وأولادي!! ما راني مسافر من اليوم ليلا،ولو ألزمني ذلك طردي،وتسريحي من المعمل.!

. وربما ما حدث هو حلم جماعي لاغير!!!أو ربما تمثيلية،وهؤلاء،كذلك هم يتوزعون على مسرح الثورة، والنضال! وهواة، للخشبة، والإخراج، مثل عمار العسكري ما بك ترتجف هكذا يا العم مسعود؟! فليكن ما يكن دولة كاملة يا بورب ركعوها أربعة قرود،أو خمسة؟!!! ياخي بلاد رحنا فيها يادين الرب كيفاش ما تتنرفزش!!!! يا خويا المخطارالندم يساورني،على تواطيء معهم، فبشهر جوان،كنت مازلت أفرك عيني، ببطء من غمدة العمر أنا متأكد الآن مقدم عليه،كان رئيس الحرس يرسل كلاما غريبا بدأ يصلني مرة،بعد أخرى من فوق الطابق،للزنزانة في هذا اليوم بداية الأسبوع الأول من شهر سبتمبر،وهو على غير قميصه المعتاد، لكن جاءني،بسروال جينز وزي أسود من الحذاء،حتى القباعة سويت نفسي،بعد أن أذهلني فجأة:

. تعرف أنك في حي مشبوه،بالعنف،والتحريض من أبواق المساجد؟!!! وبيده جريدة رديت متعب مع استقامة قامتي على الجدار... نعم...! ولكن كلا...! لست منهم والأقرع اسم لامن أحد في شيء عندنا؟!!! بل أعرف الأمرد الذي درس معي في الابتدائي،وهو يقطن في المدن الأخرى الجرباء،والزوفري يشبهه إلى حد ما في طريقة الكلام،والنطق،وأثناء الغضب،وحك أنفه أحيانا،وعندما يعود له دمه،والآراء إلى الآن على خلاف اللون،والتسمية،وحلولية كلاهما في ذات الآخر!!!! وما علاقة ولد مشيشة أي القطة، بهذه الطفلة،وخشب السفينة؟!!أحمر وجهي،بلعت ريقي،وأنا أعلم أنه مجرد يهدي،ويخلط في الكلام،وأجبت بحرف لا !ثم لا !ثم لا أعرف هذه الأسماء يا حضرة الرئيس،ولم أعشق،ولو مرة واحدة لصفحات ألف ليلة وليلة،ولا أعرف، حتى مؤلف كليلة ودمنة،ولا الذي شغفهم على التبصر في ورق الكتاب الثاني؟!!!

. رد كضفدع مسن...!!! لكن تعرف كيف تضاجعهن يا واحد البغل ،وتضرم النيران على خشب السفينة!!!، واذن،لا ؟!صدق قولي يا حضرة الرئيس الكل يشهد لي... بالوفاء وزكوني،برسالة موقعاة من طرفهم،بمحض إرادتهم... وهذه جذمة عظيمة لصقت بي ...! ولايمكن أن توجه لشخص مثل الأمرد و مثلي،ومثل من يعشق سطور الكتب،وثراء المداد،والفرشاة قال متدخل غريب يبدو أنه يحب الشغب، كالمنفيين إلى كالدونيا الجديدة،بفرنسا:

. نطق آخر هذا لا يبعد الشخص عن الجريمة؟!!

نطق آخر من بعيد عن الحلقة : التسلط عادة لا يكون مجانا، فالجهل يورث العبث في الجرم،والعلم يبني الجريمة،على خطط محكمة أردف من نطق عن بعد،وهو جالس على صخرة صامدة،على نابي فيل يضربها الموج من حين لآخر:

ـ كلاهما وجهان لعملة واحدة...؟ وهذه القمامات ألا تزعج أمنكم المهم هو مجرد رأي،وخصوصا في مثل هذه الحالات الممطرة، والمتركة فيها مجلدات،مثل المسعودى،وابن خلدون عارية!!! فكر قليلا حقيقيو،وود أن يعود إلى بشار،لكن،ربما تريد أن تخلط السفيل،بالعفيل، بشكل،أو بآخر ما أشبه البارحة،والآن،واليوم،والأمس وهو يفوق هؤلاء الكل في كل شيء حتى في بسمته،والذي أقحم اسمه،لدى أعوان السلطان،وبينهم يريد تبرئتهم،وذمتهم من عدم سفكهم،لمن ينازعهم في حبهم،للمدينة،أو ربما،لمبرر تلطيخ كل المجلدات ذات الأوراق الصفراء في الوحل،والحاق مذلة العار بالذاكرة المنسية ... وقع ..!! وقع.. !!وقع !!... سقط ... شيء من بعيد لاأحد عرف ماذا سقط المهم إنها بركة روحانية متمثلة في صرة صغيرة،كالنيزك،ربما زهرة نسرين سيغطي يبسها سطوح المدن المهم لها شكل من عجين،كالصبي يسري في نوم عميق،لما سألوا شجرة لالة شافية؟!! أوحت لهم،بأن يتركوه معلقا،على شجرتها،حتى يتم يبسه،وتذر مواسم الرياح بركته،أو لئن يتشجعوا معه لكي يواصل اهتداء سبيله،بأثر النجم،ووردة بيده..حتى يبلغ

أمـــــواتهم،و أرواحهـــــم المشعة،بضـــــياء الـــــنجم ذاته..فيـــــذر،على القرى،كالتلقيح،والإقحام يعني أيضا خلط الأمور،وتبرئة،ممن تسمعوا، لما همس به شخصيا خفية،عن جدران قصره،وعن أقفاص صدور البقية!!!

ـ التفت بسرعة،وجه من الوجوه،ممن حضروا الواقعة،برمة عينها المدان عرفناه،ونحن من يضمن لنا النجوة من هؤلاء،وسلطانهم..فما نساه السلطان،وهو يخابر رجاله بقي إلى حد الآن مهمة مجهول؟! بعد مدة من النقاش،بمنزل السي محندأوحيدة الطوبي أنهي على تمزيق قماش الصرة المعلق على الشجرة... لاستكمال حكاية الجدران،والعرش ...!! أدار السي محندأوحيدة،لهم قائلا لماذا نشهد،ونصلي مع رجال القصر صلاة الشك؟!!!، فنخشوا أن تتحول كل هذه الشهادة ضدنا،ومن دبر الفكرة يعرفونه،بيد أنهم يبغون من تماطلهم حشد كل فتوة القرية،ونحن مهمتنا الأولى أن نحمي أنفسنا من هذه الكارثة،وتبييض سحنة،وجوهنا مع السلطان،ورجاله،والإشارة لواحد منا هي مرشحة إلى اثنين،واثنين إلى ثلاثة،وهكذا،حتى تعم القرية ...! ولا أحد،ثمة تثبيت لهم،بصحة في ما يقول،ولهذا قال كبيرهم : الرئيس وحجابه يستندون على معلومات كبيرة،لكن مصدرها من عامة الناس المتبركين،بالزوايا قلت لكم هرولوا إلى الخارج تراجع أخاه لا أدري لماذا تخلف...؟؟! قلت ندفن طنزة التمثيل،على عرشه،والتي زل بها لسانه في حالة سكره!!ونوقع جميعنا، والى الأبد،وبهذا القلم الخاص،أما الهمسة،فنجند لها كلابهم!!!،والله يجعلها عامرة

هنا،وأجدادنا،ورحمتهم العامرة،بدمائهم الملونة على هذه الأرض التي سوف تنقدنا من البلاء الآتي وزحف البحر،نحو اليابس إيه يا قدور خويا تراجعت،وحدك أتريد أن نغضب الأجداد،واسمك على الجيلاني، وسيدي رحمته،بزوايتو،في بغداد التي غدت شبه رماد أنفض نفسك،كالديك الأحمر،وقدم الخير،حتى لاتكون محل شبهة،وخطر على القرية،والمدينة معا،وسنعلن ذلك على مكبرات الصوت لعودة رشد أبناءنا،وأن يحدث هذا،وأمراءهم على علم بهم،وخلافة سبع ساعات هي مجرد مناجاة شاب لا يعي عاقبة ما يقول،ولا يتحركون إلا بالمشورة إنها أمنية يجب أن تدعم،بزغاريد تجفف اللعاب من قصبة الحلوق،و القتل ضرب،بالشاقور من ثقب جدار قريتنا،ونجعل للأمرد بوحنين إن استفقوه في حينه،مع العربي بن المهيدي وملكة قريش تماثيلاً كرامة لهم،بساحة أودان رمزا،للصمود لهم عرشا مرصعا،بالعدس البراقة،والمرجان، كجزية لوقفهم في وجه الموج،وفي اليوم الثاني عزم رجل من بين الحجاب أن يؤجل قضيته،مع شكاوي الحي،وكلبته الجرباءالمصابة،بالعدوى،حيث أصيب أكثرمن ألف طفل،بالكيس المائي ،والورم،ورغم هذا فهو الوحيد الذي يظهر غضبه،دون نفاق تجاه رجال السلطنة جراء كلبته التي عزموا على رميها،بالرصاص!! داسه،بيده إلى داخل المقر رئيسهم طرحه أرضا انتفخت أدنه،ولم يلبث أن تحول في وجه الجلادين إلى شخص غريب المنظر،فخال لهم انهم يبارزون مجرد خيالاته المتصارعة بينهم،وأثر الاستنطاق،على ناصيته،كالجان،ولم ينهار،وهاهو،ذا

يتنفس الهواء الفاسد،وتقاسيم المحكوم عليه،بالمؤبد أحاجي خرافة الأمرد النائم،بالكهف المهجور،والبحث،عن قصة ظله الضائع،تحته متواصلة أبدا،وبحضور عدسات العالم،وبعض المراقبين الدوليين،وسبع بحارة محترفين،في الشم،والصبر،والنظر،والتجسس،والقنص،وبينهم أراء نابذا مشاعرا العنصرية المعجب بهما هو نفسه،منذ سبعينيات القرن العشرين. السينمائي الفرنسي ايف بواسييه،والزعيم الإفريقي نيلسون منديلا.

ـليس... معقولا... أن يصمد كل هذا الصمود...؟!!! لو لم يكن غرابة عصره...بشكله المتموه،مع جل المناطق،وحواسه المتنوعة؟! وهو نفسه ضحك من رؤيا العجوز التي رأته ليلة القدر يجثو على ركبته المتورمة يشطب،بكم قميصه ساحة القصر من يف الأظافر، وبقايا النحل الميت مع وسخ دبر الجرذان،ثم يلهث يتحسس فقط شماله... وقفصه الصدري عاريا،ومعه يرقص كبيرو قومنا،ومدينة تشهد له،وأخرى تتنكر أن واجه،في دنياه المحن،والصعاب رغم نيله صنوفا من العذاب،لأجل فكرته،وخوفه منهم إن طمعا،وان خضوعا يا عنثر أنت،وحدك تعرف قد أكون معك في شي ،وضدك في شي آخر!!!! فعلا ابن خلدون تأمر،مع تيرمورلنك، لأغتصاب جمال المدينة،بعد أن سبقت كلاب المغول إلى شراينها تبولت في كل الزوايا،وأطمئنت صاحب الرجل الحديدية اليمنى،بأنه أقتحمها كلابهم في البدء لعقت دماء كل الجثث المترامية!!،ويقال أنها تقيأت،حتى البحر المتوسط ،وأنتم تنظرون إليه،وهو يتسلى،بورق الكتب،ولب الأقلام

الفارغة،والأنابيب،وأحيانا يحاول نفض غبار،بعض عبارات خربشات جدار،بمنزلهم،والذي عليه: لكم صمود الروح،والإنبعاث من القبور،مع كل عصر تمام،مع صحوة الأمرد،مهما رميناكم، بالرصاص،أو حززنا كم،بشفرة سكين،أو حبسكم،لسبب ما. أما نحن فلنا صمود البدن أرايت يا خويا هشام كيف يحكمون عنا برفث التدخل،وقص أحلامنا لما لاتوافق هيئة جلسة سلطانهم،وأنت على وشك إعادة ترميم البلد!! إننا،وأنت،وأنتم،أصوات مخنثة،في الحي أترانا خونة،منذ الثورة هذا تفسيرسياسي،للقضية،وأوعزوه،للثوري فرحات عباس،وعلى كل حال،فهو مخطئ ...!! وللحظة غرابة عصرها!!.

ـ حسبنا المهم،والأهم دعونا من كثرة الكلام،عن كيفية الترميم،ونوعية الأسمنت،فلنرشح ناطقين،باسم البلد،وآخرين باسم الحي واحد،للسلطان،والثاني لنائبة الملكة،والثالث الذي لم يرد في قائمة الورقة هو بحار قديم مختص،في الحيتان الزرقاء التي تتبادل رسائلها،ونبضاتها،عن بعد يبلغ ١٨٨ ديسبيل،أي قياسها الصوتي،لبعد ٨٥٠ كلم،لكنه شديد الحب،للمال،ولمعلومات الحوت،والبحر تلمساني مبتور اليد اليسرى،والأدن جراء انفجار لغم قديم من خطوط موريس، منذ سنين فقط...!!لقد ظل بلا أدن،كالأمرد بوحنين الذي ضبط متلبسا،وهو يرهف السمع،لمعرفة نوعية أنين المغمى،عليهم،بالساحة العمومية من شدة الخوف،والتفتيش من قبل رجال السلطان الذين يقومون،بتمديد أجسادهم على أرصفة الموت،وجس نبض

صدورهم،بواسطة صناتة، لمعرفة نواياهم تجاه القصر تسأل كثيرهم، عن الجدوى من ذكر النائبة؟؟؟! والحالة لا تعدو تتعلق،بالمدينة،وليس القرى،فالمدن،ومأساة غزوهم من قبل الجراد هي في الواقع تحل أمنيا بما فيها قضية الخربشات التي أعتبرها الطبيب النفسي،لدى القصر تحريضا،وتمردا خطيرا من قبل الرعية!!،ثم وأن فحوى البلبلة محلية،زادت الأحوال غموضا والناطقين،باسم القرية يتوعدون من كل المدن إن أصابها الوحل،والوسخ وتعرقل السبل المِؤدية،لوضع أية دعوة في يد السلطان عينه،وتقديم له الهدايا مازال الناطق الأول،للقرية يتشدق ملأ فمه،ويزيد في ذبح الطروحات المختلفة،وشيئا،فشيئا تحول التطوع،إلى واجب،والنفوس تقعرت متقهقرة،وللحظات تداع النسخ،ويسير معه الناطق إلى حيث المركز!! ولحماية البلد يجب عزل الذي ضبط في رقص،ولهو على عتبة القصر عاريا،وكبيرهم معهم!!!وثم،وأن الطفلة صرحت أنها رأت في منامها ما يشبه الأمرد بوحنين يرقص،ثم يلوح برأسه،ويجدب جدبة صوفية،كأن جسده فصل عن عنقه،ويداه النظفتان تفرزان شذُرات كهربائية ساخنة،وشعرت حقا،بالمتعة إلا معه بحيث أفقدها السيطرة،عن نفسها تماما،وتتمنى من أعماقها أن تتوقف تلك اللحظة،لدهر ما ولأمر خاص،بالشهرة،والنجومية،وهو معها...!وتشغل على تطهير الأرض وأن تعاد مقتطفات الرؤيا... من على فراشها،وتنتصب عليه كاميرات، وتجنيد مخرجيين من الخارج ومسرحين،لرصد المشهد،لذاكرة أخرى...!! فهي أحبت الأمرد خفية عن أعراف عشيرتها،ولقلة البعول،وقد

صلت معه مناما ذروة شبقيتها من دون أن تدخل فندق بيتش... بحيث أفرغت كل حقدها،لتملأه حبا، نحوه،والبهجة تغمرها...،كالرضيع،وهو يداعب مصاصته ألصقني،على هيكل سيارة خربة،بجانب السفينة،وأجهز علي من كل الجهات،واليد الأخرى أحيانا تتمايل،عليها سكينة شاحذة، لحمايتي من مباغتاث أشباح،أوغيرهم،وتارة يلتفت خلسة يمينا،ويسارا،ويتعمد على عصر نهدي،بقوة...!ويعتصرهما، كمن ينتظر سيلان حليبهما قطرة...! قطرة...! تستلذين،وتريدين إعادة الرؤيا أشار نائب الملكة،الذي طالما ظل يفتخر،بنفسه،وأصله،ونسبه أحيانا،وهو يحمل المحضر إلى حراسه أن يهتموا،بطرح السؤال على منجم السلطنة؟!،وبعد،وكيف نسمى هذا يا منجم القصر زواج متعة،أم تحريض،على الفسق،كالخوارج،أم الهوية في ذاتها محمولة،على بطانة جمل أولاد الحمادي جهة زوزفانة جملهم الفحل الذي رمى أباهم حمادي،بنفسه من على حدبته،ليسقط كسير الحوض ظل يزحف،بشيخوخته،حتى لفظ أنفاسه!! أضرمت النيران على السفينة،ونجا منها،سوى واحد من طينة سبع أرواح، كالقطط...!! ومعه المحتمين، بخشبها الخرب مثل الخبايطية أي السكارى الذين لم يعيروا،للأمر اهتمامهم،كما أفاد شاهد عيان.

. ما معنى أن يورط.... معهم، بالذات....!!وهولا يشبه الأمرد،ولا الأقرع في شيء ولا صطيف،ولد مباركة؟!! بنت خضرة تاجرة الروج، والعرايا في حفريات الجسد،والوشم من سيدي،بلعباس إلى عنابة،ومن وهران إلى الشلف!!

صطيف الذي كان يكبرنا شيئا،وكنا نراه،وهو يمد إلى جراء مغمضي العيون قضيبه،للمص،ويشـــــعر هـــــو أنـــــاذاك،على مـــــرأى منا،بلـــــذة الارتعاشة،والغليان،وصكت العرق!...ثم يقوم،بتلويحه صوبنا،بطريقة آلية،وهو يتـــــدلى،على فخديه،وعبـــــد العـــــالي يرقص،بجانبـــــه، كعويشـــــة الغليزانية،برقصة،وجدانية جذابة،وحوضه يتلاعب على أنغام أغنية شعبية:

يا عشاق.

الزين ...

زقاقنا طويل.

وفيه الزينات...

أهي لعبة حمقاء،أم الركلة،واللطمة على الخد مع خيوط الكهرباء،والماء وصد الأبواب،فعلوا،فيه فعلتهم،وضع الزوفري رأسه برهة على طابور المقهى،والندم يساوره،وهو يقول اسأل هذا الشق الرابض بظهري،وهذه الأوشام لكل واحدة لها قصة سجن خاصة؟! أنبطح،على ظهره دون أن يأبه،بمواساة القهواجي ... ظل يحدق في ساعده المزركش،بالوشم، ويردد بنفسه أن أهل حومتي رفضوني،لئن أظهر ما به من أوساخ، وليس الأطفال،وحجارتهم! حقا المتهم معروف،وصاحب همسة الإنتحار!! معروف أخطئوا فيه،ولكن أهي إلا لعبة من رجال السلطان، للبحث عن هوية القرية الحقيقية التي روت ليلا من أن السلطان فوزعا من رؤيته،حيث أستفاق،فوجد نفسه،لوحده وغرف القصر خاوية على عروشها،فظل يصرخ،وفراغ الروقات يردد صداه،عليه؟! بدأت

أشك من أن الأمرد بوحنين موجود حقا إن هو لم تحبل به أمه،بعد، أمس فقط،لطمتني قارورة من الخلف،فلم أشأ الدردشة مع آبائهم بزاف،منذ أقامتي،بهذا الحي،وخروج فرنسا،لأن آبائهم ساعدهم قوي،بالسلطنة...اشتكتهم مرة خضرة في غياب مسيو ديسكو فاردي اقتحموا بابها،وتطايروا، بأحذيتهم مغاليق قارورات المشروبات التي، كانت مصطفة،على قطعة خشبية مستطيلة مثبتة على الحائط،والتي، كانت تحفظ فيهم أنواعا مساحيقا الوشم تعرض الزوفري،لبصقة واحدة، حتى يكف الحديث،عن عمر،وأصحابه، فأعتبرها هو خطأ،وحين قدم لهم،وثيقة هويته وجدوه في منتهى البعد،عن الشبهة،وسماته الحقيقية،غير متطابقة،حتى مع البطاقة التي يحملها،ولم يستشعروا،بأنه هو الزوفري ومع ذلك عذبوه،لأنه في موقف نازف،وأنه لا يستطيع مراسلة الصحف،والأبواق،والجدران رغم أن هيئته لاتنم عن الجرم تأملوه مليا سعلوا دفعة واحدة،ثم أبغضوا حديثه معهم.

. يا سيدي .... قلنا لك .... لسنا نحن... ؟؟؟؟!

نطق بحنق:

. أمامي إلى المجلس؟؟؟

. هل أنت س.....؟!

. سليم من كل شيء..؟! نعم.

أستيقضت باكرا،فوجدته،بجانبي ينفض فراشه من دماء عنكبوت بدينة رفسها تحته خطأ لطخ يده،ومسح غطاءه،على برودة الحيطان الجبسية، وشوارع

البليدة،والصور الحائطية،والأرصفة المغطاة،بالزهور في لفتة صغيرة عادت به ذاكرة وشم مريضة كثيرا إلى الوراء زمن الموت،والقهر،وركام العظام العارية من اللحم،الـذين مـلأ حـزنهم شـوقهم السـرمدي فـراغ الرصـيف،بدمائهم الحمراء،ونبرة،ومازوشية سيدهم المتشددة تتأرجح على أدنه..كل شيء ضدك أنت أيضا!!،لأن الجرح غائر،بالتأكيد،والوصفة مرفقة مع ختم،وتوقيع ثلاثة أطباء أخصائيين، بأنك في حتفك،ومرضك الجنوني قضوا معه فحصا قرابة نصف يوم والبعض قالوا أن اللحظة دامت نصف قرن،وصورة عبد الحق التي قدمها، كانت ما تزال أمامي، فوق ملف المحضر لست أدري لمادا أطلقوا عليه النار سقط!اللي سقط!على الأرض تمويها!!! لئن يكفوا،عليه عذاب المطاردة،ثم قفزوا،وإذ به يهوى أسفل الجسر في مستنقعات فاسدة...أين؟ عثروا رجاله على أطراف من اللحم الآدمي،ودفاتر ممزقة عليها مطالع قصائد الغربة،والمنفى،وأقلام كثيرة مكسرة مرمية، بالوحل؟! من هم القائمون على هذه الجريمة !!وحتى ألسنة النيران التي إمتدت إلى جد الأمرد حسب ما قيل،وأغطيته،بشارع الحوت على مقربة من دكان السمك لاأحد، كان يعرف ما كان يخطه دائما،وبسرعة على تلك الأوراق البيضاء،وصفائح النعال،وجدوه متفحما كلاب حمرانية،و قطط طارئة تتشمم رميم عظامه الصوفية كعب الأحبار اليهودي تنبأ،لعمر وموته انك ميت،بعد ثلاثة أيام حسب التوراة،والقمل، والمزيرية يا بويا الحنين !! راح يحدث نفسه لن أتراجع عن ما بدرمني لما تنتفض يا صاحب النظارة الغائمة إفتعالا هل لدغتك حية،أم

أصابك مكروه الجراد النازل على المساحات الخضراء المتسلل إليها،منذ الأزل قصد الخراب، والدمار عشش أبو لؤلؤة،بينهم لطيبتهم،وسمحاء عمر تجاه الآخرين أيْ!! وح!! الكلب ابن الكلبة قتله وطار الكلب في طريقه طعن ثلاثة عشر رجلا ظنهم يعترضون سبيله،ورفس،على معظم زهور النسرين،ولمعانها الأبيض،قل يا واحد القذر؟! إيقاف بلغوث،وقريبه،ثم وأنا والبحث ساري المفعول على حقيقو أيْ عبد الحق،ولو اقتضى،ذلك حرق المدن كلها،وتركها بنيرانها أجيجا يتفرج عليها أشباه الخوارج عن جلدتنا أنتفض،كالديك،بصوت تتجاوب معه القاعة أتظنني بدوي إلى هذا الحد أنت لاتفقه من قضية ريمو،والموسطاش،أيْ شيء؟! انهم يرونك،بأن موسطاش لا يصلح سوى،للوشاية تتناقله فرقهم من زاوية،لأخرى،والفرح الداخلي يصعد من أعماقك مقابل مصالحك،فأنا أوشك أن أعمر أكثر من فرعون،أم ملئوا جيوبي ما يفوق قارون.

ـ ما أصعبك... يا ممرضة ما تلك الحقنة التي تركتني أبوح لك... بخطوط الخطر الحمراء... !!ولكني لم أبوح لها،بكنية الصحفي الذي أراد إقامة الحقيقة على قرن ثور،والذي ساعدني على تكريس جائزة اللوحة الزيتية..ويبنى لك مجدا،وتحطم الخونة، وأعداء الدين والله،والبلد !!ومن أي حنين قدمت يا كلب ؟!أتظن لعنتك على الذي ألصق ذاته،بطين المدينة،وطوعه للمتمردين على حب الله ونبييه أضاف السجان،وعون السلطان،ورجال القصر أنسحب الثاني،وبقي الأول يتسلى بهم ريثما تأتي ساعة نهايته من وقت الحراسة،عم

تحدثم الليلة الفارطة، إذن ؟؟ أتظن أنى، كنت أسري في نوم متناغم أقترب من أحدهم،وهو من لا يعرف المطلوب رأسه،بألف دينار... وألف دولار!!أنت أيها الأجرب فتحوا الزنزانة تسارع عليك،وهو ثالثهم خنق أنفاسك المتلاحقة شعرت،بضغط كبدك ألتفت تحدق في اعتقدت أنا الذي خنقت البلد أيضا يا صحفي تأكدت من دخولي إلا في تلك اللحظة مع شخص لا أعرفه قيل أنه دعم جماعة، غير مرغوب فيها من قبل القصر.

ـ يمكنك أن تسأل،عن سبب محاولتي الانتحار ذات يوم !... ستجد الإجابة دفعة واحدة...! ومرة،بعد أخرى أستفزه،بأنه هو سببك في دخولك السجن،ومنعك من عرض لوحتك،بساحة الثورة،ببونه.

ـ أي انتحار؟؟؟؟ !

ـ لقد أجهز،عليه رئيس الحرس منهك القوى،وبيده سلك من النحاس أورده على عنقه أفلت منه تسارع،عليه عونان حاول الإفلات نطحه أحدهما،برأسه قطب حاجباه نطحه إبن حييه،للمرة الثالثة فيما حاولوا الباقون تتبيث ابر قوارير مملوءة حمضا،وكحولا مخدرا،في الصغر درس معه،بكل جبنه،وأليت براميل القاذورات ينطقون،ومعم شجرة التوت التي ستنطق يوما ما!! صاح اتركوني لا أعرف هذا الأمرد بوحنين،حينذاك أقفز به،نحو قاعة الاستنطاق، وهو يلهث عذباه أغمي عليه،وسكرات الموت تراوده مع قريته الخربة المكرهة على السقوط الساعة تبول عليها الرئيس،وعلى مقام الرجل الصالح،وخلفه مباشرة بعد أن غادر المغارة،والتفتيش على أبي تراب الرشيد

الذي رضع في صغره من بوفاريك،بالذات هو الآن أعمى الهوية،أم بصيرا،أم عاد،إليه سقمه القديم،أي مرض الغشي أتلفت عليه،حتى دكاكين علب السردين،والزيتون والخبز توسط الزوفري قارعة الطريق،وهو لا يعرف أهو في وسط قومبيطا،أم في الضواحي،أم على ساحل قسنطينة،أم في شمال الوطن،أم في جنوبه،أم في غربه أم فوق الأضرحة الهندسية،والمستديرة بالخروب،أم هو في زمن اللاوعي،أم صوت خضر بنت فيلاج اللفت العباسية القحة،كما يفتخر بها المداحون، وأهل الطرب،والجوقة في مواسم الأعراس الصيفية يناديه.يتحسس يمنه،ويسره،بحزام جرو كلبته الذي يتمهد به الطريق،بين المحج والسبل العارية،وأزقة الشوارع المنكوبة،بعد جفافها من الغرق،وتدوي التصفيرات من على السطوح،والأزقة!!ثم تدوي ومن خلف أعمدة الكهرباء،كذلك فيرمي بصره،بجحوظ عينيه،وكأنهما يوشكان يتدفقا منهما شيئا ثالثا!!أو ذلك السواد الرمادي،أو كأنه يرى الصوت، والصخرة معا،ولو بحجم حبات الخرذل المهاجرة،كحبات الرمال،فيفزع سمعه لما يكرروا القذف من حواليه من جديد،فينتظر أن تتهشم على رأسه فيثقب رأسه،وتسكن به ذبابة ما،أو أية حشرة تشوش عليه حاسة السمع!! أو رصاصة صائبة من حطاب القّذر،أوقد تكون برعم جرادة تخذش له طبلتي أدنه،!! وجيوب جلبابه الرمادي الخشن المليء،بالصور الملونة لشخصيات هي سمة عصرها سمروا تابوثاتهم،بأضخم المسامير، حتى لا تتسرب لها مرة أخرى نسل الجراد،والجراذن،فمازلت اشعر،بهمهماتهم التي ما فتئت تحاول إرغام

الطبيب الأوربي على خربشة فوق كفنه عبارة mort naturel أي موت طبيعية،وقبل كذلك أن يدق ناقوس الجنازة على أبوابهم الخشبية، و أياديهم الملطخة حبرا مع رائحة الورق،ومازوت الطباعة..سد أنفه،بكم قميصه،وتذمر الزوفري من تكدر هـ،برائحة الأوشمة،ومغاليق المشروبات المبعثرة،بالحي التي كانت تحضر عليهم مسحوق مادة الوشم أيضا،وبعد كل عصر فكر،ثم تسأل،وظل مرة يبصق عليهم،وكل واحدة على حدة بيسراه،ومرة يوعدهم، بمراسيم التكريم،والورد الأبيض،والمياه العذبة على رماد عظامهم النخرة،وأصابعه تداعبهم، بيمناه عكس تواجد قلوبهم الرحبة،ربما قد يباغثه سعاة الطرق،أو رجال سريين قرامطة هم ربما بخيولهم،وألجمتها الحديدية تحز أفواهها جوعا،أو أحفادهم ليوم خاص لمحاسبته على ما أقترف،وليحتفظوا له،برصاصة داخل صدره يسرق نظراته ذات اليمين،وذات اليسار،ولم يشعر بالراحة،منذ أن تسمر لغرض ما بهذه الزاوية،بحي الحواتة التي تكدست،عليها الجرائد الملأ،بالعناوين الثقافية،والسياسية التي يلف فيها باعة السمك،لزبائنهم السمك،والحوت،وبقية المصائد المائية.

الفصل الثاني

(٢)

أنتصف الفجر،وبعد أن كانوا قد جردوني من كل وثيقة تثبت فضيلتي، وهويتي بما فيها وريقات صغيرة عليها سطور من كتاب نينا بوراوي،والتي فاتتني الفرصة لسرطها،مع غثاثة لعابي ألقوا بي الزقاق القرميدي في شبه غيبوبة تامة فوق خراطيش الرصاص الفارغة التي كان حديدها ما يزال يحتفظ،بسخونته بعض الشيء.فحتى إذا ما رأته الجرد،وهو يتربب على أحد رجاله، لئن يسارعوا،بحشو القطعةالخرقة المبللة،بالماء بين فكي السفلي والعلوي، وجسدي مسجى على حافة الذاكرة التي ما فتئ الذباب المشيع مع قذارة العمارات ينط، عليها بطنين خاص ولت دابرة، نحو جحورها إيمانا منها،بأن العملية تصل،حتى مآويها،أو كأنها مجرد لعبة مصنوعة من الورق المقوى هدية

من جارية الملك خصيصا للصبية،وحتى هم ظلوا يقلدون كبارهم في لمس سيوفهم المطاطية،والتخريط على الجدران...!! لكن قبل أن يصحو أمرد البلد.

قال رئيس القصر،وهو يسوي من تمثلي يوغرطة،وماسنيسا،اللذان،كانا يودان الانزلاق من على الطاولة أمرت،باستجوابك،وإخلاءك،ونفيك من هذه الأرض أنت الذي زرعت الفكرة،وتركت الجميع يحاول تجسيدها بالورق المقوى بما فيهم حتى أرواح القتلى،والحشرات الباحثة عن حبات الخرذل،كقوت لها والهوام أيضا،وان نجحت كلنا إلى الجسر،وهاويته،والتلطيخ،بعار الطين من قبل السلطان،وصهره قل من خطط لغرق السفينة،وإنتعاش الجرذان مع الجرد أحيانا،وحتى المحامي أستغرب من القضية،وتداخل البشر مع بقية الحيات الخطيرة؟!والمتهم المشبوه أكثروا،عليه الأقوال فأخلط حابله بنابله،وعوض أن يدافع،عن نفسه فلت لسانه بزلة،وجاء ضد نفسه!أضطرب المحامي،بلباسه الأسود كالراهب الذي ظل يتصبب عرقا سيدي نائب السلطان،للحكاية أربع عشرة وجها،وبما أننا في المركز الثالث...! أرتأيت أن نسرد واحدة فقط، والأخريات خيط يربطها،بهن بلغوث فلم يجب المحامي،عن علاقته بالأمرد،وحنين وعلاقة الأمرد بالمدينة حقا عثر أكثر من واحد على بقع من الدم الأسود يابسة على التربة غرف القصر ملأ بالمحاضر،والألواح الزيتية الخطيرة الأشكال! أهمها قضية غرق السفينة،ووسخ الجدران! وممن أغرقوا حبالها في الوحل،ثم لم ينسفوا على عود الثقاب الذي امتدت ناره،نحو خزانة

الكتب،والدواة،والراوي أباح إلا لواحد من أنه، كان بينهم حفيدا من أحفاد هولاكو!! توقف الراوي في نصف الحكاية يرتب أوراقه مندهشا من أبراجي الملك،واللؤلؤ المثبت،على بابه العريض المشتاق الى لمسه الكثير من عبيده تكلم نائب رئيس القصر الذي رقي إلا في الآونة الأخيرة إلى هذه الرتبة لاشيء يشيء بالأشباح،ولاصفة على مدخل المدينة الخاص برعايانا تحمل كلمة الأمرد؟!!! ولا مسيو ديسكو فاردي ولاوثيقة بها سيف ذي يزن،ولاألف ليلة وليلة،ولاشيء آخر،حتى الكتاب والفرشاة،وعلبة أنابيب التلوين الذين اقتنيتهم من المغرب العام الماضي مرورا،بأقاربي لابد،وأن أحدا تدخل في شؤوني الخاصة بي جدا مزقها،ودهس على الأنابيب كالجبان،ثم عمل،على اتلافهم بالكامل حيث لا نعثر لهم على أثر...!! طل العون من فوهة الزنزانة،وهو متيقن من أن الرجل مازال مصلوبا في غيبوبة تامة،وبطنه الأسود يحتضن الزليج،وفكرة المحاكمة مازالت بعيدة حضر الشاهد الأول على الدم غير أبه بالذي تفوه به المحامي،حيث أكد على عبارة ليس ثمة شيء يدعو على الحيرة صمت،وراح يرد على نائب رئيس القصر ... دار الرئيس نصف دورة في أريكته الفخمة ضغط على الزر،أنتصبوا أمامه ثلاثة أشار لهم بإعادته،لاستنطاق فكرته من جديد! أحدهم لم يتبخر،بعد من ذاكرتي،وتأكدت من أكذوبة إصابته،بالسرطان،ونقله إلى وطنه جثة هامدة هو بالذات ذي الرأس الأفطس والقامة البدينة،وشارة خصوصية،فوق حاجبيه الأيسر كنت كل عشوة خميس ألفه يتردد على فندق ميامي!!، وحقيقو،كنت

لم أتعرف عليه بعد،وهو أيضا يتردد صبيا على هذا الفندق، بحزام صندوقه يبتاع فيه السجائر،والأقراص المهدئة لعرج أخو لقرع من أمه يتكئ على مقعد،ويسافر في نشوة زيف كاذبة،ليعطل تأنيبة ضميره جراء الأرواح الصغيرة من القطط،والجراء التي رماها عمدا على عوارض الطرقات لتدوسها عجلات الشاحنات!! وتخريبه لأضرحة إغريقية،فنقية،ذات الشكل المستدير،والهرمي البرجي!! و خصوصا ابن عمته الذي كان يتعاطى معه الحشيش أنقلب عليه لما أصبح متطوعا لدى رجال القصر،ولما شبهوه له بأن واحدا في الصف الأول للجراد... ألزمهم أن يربطوه،على مرأى من عينيه،وبعد كل فعلة مخلة بالحياء فعلها به علقه بالحبل من رجليه،وتركه يسقط بقوة أنكسر من عموده الفقري،وهو المصاب،بمرض السل،وضعف المفاصل نتيجة فقره تكرر صراخه أقترب منه وحشا بفمه صخرة،حتى لا يزعج مرة ثانية شخير الرؤوس الضخمة في البلد التي طلبته على جناح السرعة! وهذا أشبه بذر الرماد من حارس القصر الذي أقحموه على قتله،منذ أن عثر عليه يبكي ببطء داخل علبة صغيرة مع صغار قطة ذات فجر!!ودماء تخنة عالقة به أدخل مركز الإسعاف،ولما أشتد عوده استحلفوه،بالله أن يخدمهم أولا،والقصر،والوطن وأعوانهم،والله وأن يسعى دائما سبع مرات،بين بنايتهم كل ليلة حراسة ومراقبة من يخرب حدائقهم،ويشغل كلابهم المشدودة إلى أوتادها،وكأنه يسعى، بين الصفا،والمروة، وطووا له برقية في جيبه تخصه جدا،ولكنها تتفارق وبسمته الأولى..أرغموه على حملها، وأوهموه إن هو قتل الأمرد بوحنين، حتى قبل أن

توحم به أية امرأة، وكشف لهم عن من هو الأقرع سوف يقام له تمثالا وسط المدينة مالم يقوموه لعز الدين مجوبي،أو الطاهر جاووت،مكللا بزهر النسرين!!أو من كانوا يلطخون جدران المدن،برماد الفحم قالوا له مجوبي عثرنا،عليه وجها لوجه يشعوذ ضغطت،على الزناد تطاير لوحها فجأة!التفت خلفه لم يعرف مصدرها،ثم لم يعر لنا كبير الاهتمام!! وهم يراقبون معنا من بين فجوات النوافذ حركاته،ثم نسف على عود الثقاب،مسح،بكمه غبار الخشبة،وتقدم يلم باقة زهور النسرين التي تبعثرت أسفل المصطبة،وهو يلقي بالدموع على الذي مزق له ستائر القاعة أيضا!!وجاووت؟!! فجأة بشر حطاب الحديث في نصفه،وتدخل راميا في الهواء كومة من الصور سألته جارية مخولة لخدمة الخيمة عن (؟؟؟) فأجاب،دون مواربة،ذلك معروف،بمن لا تتجاوز الرابع عشرة،والآخر الأستفحاش في الذكورة،ولكل واحد طريقة حتفه يختارها بنفسه إن قيد حيا إلى الخفارة...!! والصحفي؟؟؟؟ الصحفي!! كاه...!! كاه...!! كاه...!! زادته غرورا قهقهاته،وقال الأعزب نقطع لسانه،ونبتر يده، شهد،وهو تقدم له الهدايا من قبل مسئولي البلد،ككفاءة على ما يكتب،ويقراء أمام الفتيات بخزعبلاته،على ساحة المدينة قصد الترفيه عنهم،وهو يقطن بحي يؤمن بحدافره بعودة المهدي!! ولا يكره سيدي أبي مروان الشريف،ومارواله برجه الأرقط لتسليمه مفاتيح المدينة، لأمرد ،والصبيان يعزفون،حوله معزوفة الأرض،والدمار،ولإحساسه الدنف كالعذراء!.. لم يستكمل أسبوعا واحدا،حتى سمعوا صفارة اندار،تدوي،على سواحل معينة!.أرسل قادة نظرة

سريعة صوبا ساطوره،ورشاشه انتهى أخيرا إلى أن ينصب كمينا لوحده ليلا،وأعوانه في الوادي الذي يربطنا،بالحدود المغربية. كان الفجر يتنفس ضؤا باهتا مسيرة يوم،ثم ظهرت خيالاتهم الثلاثة يتقدمهم بغل كبغل أحمد بكداش،وعليه أكياس من الكيف،والمخدرات،عند المنحدر أبتسم، بطيبة خاطر،وألصق النار على واحد منهم،بينما لاذا الاثنان بالفرار مخلفين وراءهما طريحا!،والبغل سالكا طريقا،وعرا من شدة الفزع حاول الشخص النهوض أقترب منه مجردا من السلاح،أما يكفيك هذه الرصاصة يا لقيط؟! التي أسكنتها،بظهري،وتحريضكم،علينا حراس المدن؟!!

ـ انتشى خيبة من قلبه،وهو يتوجع من شدة الرصاصة أنهال،عليه يقبل يداه،وأقدامه،وكل شيء،لطخ له،حتى ملابسه،بدمه لقد،وجده أخاه من الأبوة تذكر قبح زوجة أبيه تجاهه قديما...! في هذه اللحظة،بالذات،وأن ما فعله الرجل مجرد مسرحية،لما عدت إلى الكتيبة شددت في إصدار أوامري،لأعواني لليقظة،والحذر!..فهو شخص غريب جدا وتدب فيه غرابة يستحيل أن يتحكم فيها،وهو على أية حال ينتظر حلم عودة أخيه،مكرما معززا من الأندلس ومجلدات الفتاوى،بيده.

ـ لكن في ما بعد استدعيته لوحدنا!!...لأقنعه،بأنهم شبهوك فقط!... وفي مقدمتهم صهرك،الذي أترث عليه عملية اغتيال ابنه،وعليه فهو مافتيء يخلط في مهاتراته كالمخبول،والكتيبة الأولى بها طبيب نفساني لازم أن يزوره،لئن يمده بأشياء تساعده على كيفية التحكم،في مشاعره مستقبلا لتكثيف

عملياتنا،وان كانت مشكلته المرضية تزوره دائما،بعد صلاة العصر،لتستنهض شكه،اذن أزمته أزمة زمن وأزمة يقين،ثم أضاف بنفسه،والعياذ بالله من أن أكون من الدهريين،لما شعر،بزلة لسانه دور كفة حديثه على اليوسفية وتسمسيلت،وعين الدفلى،ثم تعجب من غرق السفينة،ولم يكن بها أيْ مطلوب؟!وظل نائب الزوابري يقفز على بعض العبارات،مثل موت رجالها،وهاهو يحدجه،بنظاراته الكبيرة أستغرق قرابة أربع ساعات،دون يدري أنه يوبخه في نفسه؟ تضايق به المقام أكثر،وهو يلقي سرابه على الصور التي رماها عرض الخيمة! تذكر اللغط،والسيف أين كان يبدو،عليه زهو اللحظة؟! وصورة بالأبيض،والأسود لم تجف بعد من الأحماض الكيماوية القديمة السائل، والمسحوق،وهي ملقاة،على قطعة خشبية في انتظار جفافها،في يومها الثالث يالله من أمدهم هذه التجهيزات هنا،بهذه الوديان الجافة ،والأعشاب وأصال لهم هذه الصناديق الخشبية الضخمة الراسية بها هذه البغال الآن!...لاشك وأن لهم مع مافيات التهريب خيوط كثيرة فعلا!؟؟

ـ ألا ليت أمي لم تلدن !... وأضاف يدك في التراب يا بلغوث أخذك من عل وألقي بك متغوطا على سرولك الجينز... أحمر وجهه، وظن كل نوابه أن مرضه يزداد حدة،وفكرة الأمرد بوحنين الفظيعة،وهو يذر حب مكور وكبير،على الأرض خصيصا،لطلع زهر النسرين،وكتحفة على قرية تسلى في رسمها،ولم يشرع في تلوينها،بعد؟!! بدأت تستحوذ عليه،ولو كانت أسطورة الورق المقوى صاح، وهو يرتجف إن الأمرد يضربني على رأسي؟! كالمنقار،و

تخشعرت له الأبدان زاد،وأحدث صوتا كالمقبل على الهلاك مدد يده طويلا، وناوله سيجارة مالبورو الكل تأكد أنه في حالة يرثى لها إن لم يعد يفرق،بين حرامه،وحلاله،عقله يدور في قيامة من الحيرة السخيفة،وهو يتذكر... حركة السفينة،وأضلافها الخشبية المتداعية صوب البحر،والدم،والبرد،والصبية يودون اللهو بألواحها المبعثرة، تصرخ والنسوة يلقين حتفهن رميا بالرصاص عادة إليه صورة القزم،الذي قبضوا عليه وهوغير معروف،بسجل المدينة،وعمره يشارف التسعين سنة قيل أنه طارئ،ويملك قوة ثور،وينذر بعودة مهديه لوحده !! ألتفت النائب فلم يجد سوى الصراخ،والسفينة تتوغل في الغرق بحث عنه،فلم يجده،كأنه تموه،كمهارة تخفى تنين البحر الشرس الطحلبي،من فراسة سمك القرش،وغيره،أو قوة روحية خطفته،وعلى الساعة الرابعة مساءا أعلنت الجمارك الألمانية بضبطها سفينة في ميناء هامبورغ محملة بالسلاح من إسرائيل شاقة شراعها،نحو إيران بدل تايلان،لكن ناطق الخارجية نفي،حتى قصة السفينة (كارين أ) الزعمة إسرائيل أنها،وجهت إلى فلسطين نائب الرجل برأ ما قاله،وقال قرأت ذلك بصحيفة (يديعوت أحر ونوت)ونعل الله الساسة،والسياسة فيما تفكر ياحميدو؟! في المنصب الجديد،وإقالة الأمير،أم في إشاعة أن بلغوث استهام قريبا من لقرع الزوفري هو،أو أي إحداهما الذي عرفوه،بأثر عظام السردين،وبقايا الفرماج! عثر،عليه يتقمص لباس الأمرد بوحنين لتغليط عدسات كاميرات العالم المنتصبة،لأجل معرفة من أي فصيلة هو،وأي قرن عاش،ومعه مقتل بلغوث؟؟،أم قتل هذا الأخير في زوجتك

الثانية؟!، ثم أكمل في نفسه زوجتك التي لم يفاجئها الطمث بعد،حتى وان باغتها فإنها،وإنها لن تفشي،بالسر خوفا من أن تظل،كرغبة للآخرين قوادك يبعثوك لمهمات سفك وتشريد،وبعد أسابيع من رش الجدران،بالدماء!! تعود،وتحلق في خيوط السفينة محطمة،كما عهدتها،بذاتك فيولد لديك شعور مبهم،وهي تجفف خرقها التي لم تغفل عليهم،منذ مبلغها الخامس عشرة من عمرها،ولم يلطخها الطمث،للحظة فزعت،وأنت تصادف ليلة شتوية !... قفزت من مكاني وزدت في إحكام الأبواب،والنوافذ،وأنا أتصور تلك القطط الغريبة،بالمدينة تداعب الوجه المضحك،بسبعة رؤوس،كالحية بقع من الدم على فراشك..كان شيء من القرف يعاودك كم أشبه لك ذلك بقطرات ياسمينه بريخ المختطفة أربع وعشرون سنة تغتال ذبحا صبيحة ٠٤ /٠٩ /١٩٩٥ ثم تخرج عن الموضوع،و تسأل في شوزفرينيا من قتلها.؟وقتل رشيدة حمادي؟ وسفك مدينة الأعزب من هذا الذي قتل نحلي...؟؟؟ ورفس تلك البيوت الطنية التي كنا نلهى بها،والصلصال،على صفائح أيدينا البضة؟؟ لتو غيرت الصفحة إلى صفحة أخرى خاصة،بقائمة التسلية،والأبراج،والحظ ،بدل من قناة ٠٥ الفرنسية،وهي تخصص ملف حول الكتابة الجزائرية،والموت،واختطاف شيخ من إحدى القبائل،ومعه فتاة في سن الخامس عشرة وصبي نجا من الهلاك،بأعجوبة من بين تسع عشرة ولاية قيل أن الصبي هو الذي يخلط إلى حد الآن الأوراق الغير المطوية،بعد لرجال القصر،وخفارة الحرس، وشوهد،وهو يصلح مخرج من السفينة الغرقة،ورأى

اللحم المرمي،على أطراف الوادي خرج الشيخ مسكينا يبحث عن ناقته التي أجفلها له كثرة الحديث عن الأمرد،ثم أجفلوا له أيضا حماره الحارون تمرغ الجمل على البعر رغى،وزبد،وكأنه يقسم،وكذلك أن يركل من يحاديه،أو يحاول لمسه طارده طويلا،ثم أستوقفه يلهث،و أقدامه ملأ،بالرمال نحروا الجمل!،وظلت الناقة ترغى! و اقتادوا الشيخ زجا به في إحدى المغارات،ولما أنزلوا بستار المغارة آوت إليه حسناء خفية..كانت عارية إلا من خرقة تستر بها فرجها تهالكت،عليه أستيظت قطبت من حاجبيها لما،وجدته جدها في الخارج.كان الغبار يتصاعد من الأقدام المتراصة،والتعاليم التدريبية في تناغم مع النوتات الموسيقية السبع،دون علمهم..كانت تخترق الآدان،والعياط يتهلل،دون انتظار،أو الانشغال،بأخبار الأمرد بوحنين،أو لقرع الزوفري ببنيته القوية،وما يشاع عنه من إصلاح للسفينة الأمرد،وحده له رقصة بهلوانية لوحده،وخاصة،وغريبة،في نفس الوقت فرحا،بحلول مهرجان الشعر لأولاد بسام بتسمسيلت،أو وليمة أخراة،والمطرقة، بيده،والعرق سيلا من وجهه تمنى هو أن يعودون، ورقصته الصوفية معه،ولو ساعة،ولو أسبوع،ولو دقيقة،ولو في غضة طرف لكي يعيدون،ويروا بأنفسهم نسف أرواحهم من على أجسادهم النحيفة...ويشجعوا أطباءهم،ورؤى حالمييهم ليلا على استنساخ منه المئات،و انتشارهم،على كامل أرجاء القرى،والبلد وكافة العالم!

. أبشر يا حقيقو ...!! علمت أني لست في شرقها ولاغربها؟!ولا في الولاية السابعة،أو الثالثة،أو في جهة اليمن،ولا على حاشية حانة،وماخور مسيو

ديسكو فاردي.. كنت أسترق النظر من فوهة خلفية ... وأحد الملتحين يبدو لي من هيئته الفضولية، وخفة ظله مريضا نفسيا،ألتفت، وقال ... وين راه الأمير وين؟؟؟؟ قبل أن نباشر في أول عملية اغتيال أمدنا،حين ذاك،بالمعونة عونهم...!وفي مقدمتهم من زجرنا شتما!،ذلك أي طلاء السيارات بن حميدة،والأمير معه كم فرحا،وهو يمزق نصف شعوره سرورا،لما فسرا له قائد خيمة التفاوض،مع كبار رؤساء القصر حرفا حرفا،وبالإشارات ما ورد،بالجرائد،وخصوصا ما تأسفت،عليه جريدة الخبر من أن إيران وتوقيفها سبعة عشر شخصا،ليوم مشئوم!!وذلك لسماعهم الموسيقى،بشواطئ إنزالي قرب بحر قزوين أرهفت الفتاة أدنها يبست،وأرغمته على الصمت،حتى لا يدري الأمير أنها في غير وكره؟! ألتصق بها..كان هائجا نهشها من الوراء، والخلف همست إليه يجب أن لا يعرف أحد سواك،ولو كانت أدان الأبراج أزاحت الستار قليلا فرأت صبيا،ورضع ملحفين في أقمشة بيضاء عددهم يفوق المائة،وألوانهم لاتزيد عن الثلاثة ألوان، أسود أبيض ولون، بين الأبيض،والأسود، واليوم حفلة كبيرة،بمناسبة ميلاد الطفل، وزعزعة القصر،وحتف تسمسيلت، وحاش بالله على الأولياء الصالحين أن يحمل اسمه فاسق،مثل ذاك الذي أسقطناه! والطفل هذا يا بنت زوليخة؟هو ولي عهدي سيبايع، بعد غد،أو بعد صلاة الجمعة، كولي وفقط؟! وهذه صناديق خشبية تحوي كتب الطبراني،والمسعودى،وابن خلدون،والزنديق ابن رشد الذي تعاطف مع يهود قرطبة الأسبان الكلاب،حتى ظنوا أنه منهم!! وأجودهم

مجلدات ابن الهيثم لابتكار القنابل،والإنارة،لمواجهة طاغوت آخر؟! لكن الرجل عض على شفتيه،وملأ المغارة برائحته المتغوظة،وعاد يسأل : أين هو الأمير أين ؟؟؟! وين ؟؟ هو بالله! وين؟؟لأبلاغه،بأن اليوسفية قد حرقت عن آخرها،وبكل أريافها،وحتما ستؤمن هي الأخرى،بقدومه لأصلاح السفينة!وطلييها بلون يليق،بمقام أهلها!!وحتى الخولة التي طلبتها،ربما تكون قد تحولت إلى رماد، رد،عليه حارس الأمير: لسنا،كما تزعمون أيها المقاوم الطاهر على أن الحال،كما هو في جهتكم السذجة تتساهلون،وأرضكم بها طواغيت يملئون الأرض لواطا،واختطاف القصر وجلكم.. كان راضياً بما يفعله الطاغوت؟! بقرنيه الدامية أما الأمراء،فقد توجهوا،الى ناحية مجهولة من البلد لرسم بعض الحدودات!! والآن ينقصهم،سوى معادن الأسلاك الكهربائية،لتعيين ما يمكن تعيينه أسلاك،مثل تلك التي ربط بها ذلك الوغد! من طرف،أولئك السريين يعود كبير القواد يبصق،على الأمراء،ويصفع النواب،بفردة نعليه،ولاأحد يتحرك من مكانه،وهم وقوف في صف مهيب عيونهم مبحلقة،كالأصنام،وإلا من خياشمهم التي..كانت تشعرك،بأنهم أحياء،وهم نصبة على أشجار التوت تفرقوا على حين غرة،بإشارة منه،وعاد مساء الجمعة مع غروب الشمس،وهو يتحول إلى مجرد روح خفيفة تمشي على الأرض،وبين مختلف المدن،ولايراه أحد سوى قبيلة واحدة،ولاطاغوث بقرنيه ولاطلاء،ولانجار،ولاشاعر،ولاشاعرة،ولابونة،ولا فاسقهاعزالدين ميهوبي أخزاه الله مع الهائمين في غرق الوادي،والساسة،والسياسة الصور التي بعثرها

على التراب ما تزال في مأخذ المشورة،بين النواب وكل منفذ أن يأمر بحتف سوى،الذي منه،ويدع عنه القبائل الأخرى لبقية الجند تسللت له،وهذا ما،وجدت في مقامه،إلا هذه القائمة الطويلة،دون توقيع،ولا ختم،ولكن هو من دم إصبعه،لمن ينتظرهم السقوط قادما...! وهو يعرف ما أطلق،عليه إشاعة عدم التفريق،بين الانتحار،والاستشهاد منذ يوم١٦ /٠٤ /٩٣ وما دونه،ذلك الصحفي اليهودي توماس ويدمان،وأفتخر سيدي...ومسح على لحيته مبتسما، لما أعترف الصحفي اليهودي،كذلك،بالوجع!!الذي سببه مجاهدو فلسطين لإسرائيل، فلم يحدث هذا منذ ٥٠ عاما عربيا! من أطلق إشاعة الإطاحة بمقامه؟!،ثم عرشه يعرفه،فهو بينكم،وينتظر ساعته،كالأقرع الزوفري،أو الرجل الأمرد الذي منع ذلك الشاعر الفقير أب عن جد هربا! الذي سلبوا من أجداده أرضهم الفلاحية عام ١٨٦٨ مع قانون كريميو ١٨٧١ لتجنيد اليهود الخنازير،بالبلد غضب أهل الشاعر،حين ذاك،وذويه لسنا ندري؟؟؟؟! كالذباب مع القمامات القذرة؟ هذه إهانة لكم،ولنا؟؟! أم نتمرد على البنايات كالخوارج؟!! لم يستفطن الشاعر، ولا الشاب القوي،كذلك للشيوخ،وشيوخه،وهم يرددون في،وضح النهار آيات الكرسي،وأحيانا بخفت الشفاه أسْ... أس... أصمتْ الآن، حتى لا تنال من سخطهم ليلا، ضاجع الواحد، بعد الأخر نسائهم، وعلى مرأى من الإناث، وهذا أصبح يترسخ في قناعات الأمرد بنفسه دون شهود؟!وهو في إنعاشه،وما ترك الشاعر يقهقه،بداخله رغم الغلبة،والجوع،والعذاب يزحف رويدا رويدا،وأثر الحزات

على جسمه،ليسترق الطل،عليهم،وقائدهم يستأسد،بينهم،والجنود بعضها حراسة بحيث نصفها داخل الخنادق،ورؤوسها مكشوفة،على سطح الأرض،والأخرى على مقربة منه..تتحرك من الأعلى، نحو الأسفل طاعة!. بدأت تتفرز ألوان الصخور، وبعض الحشرات بدأت تشق طريقها، نحو مرابضها، والطيور قد فركت أحدا قها، بهدوء والموصل الذي يفصل، بين المعسكر، والمعسكر في غاية الوداعة لما يعتريه من جوارىء، وأخرين حسن الوجوه لا يهمهم أمر غرق السفينة، والبحارة مساكين هم الذين فقدوا أمتعتهم، وصناديق خمرهم الخشبية، وحقائب صيدهم فجأة،ودون سابق انذار! وكتيبة نازة، بالمشايخ خاصة، بالفتاوى، وخجلهم أمام قائدهم جلهم يتغوطون، تحتهم لعدم فهمهم، بعض أراء الزنديق بن رشد...!استوقف، وتوقف، ببغلته شخص قيل هو من سلالة الحاج بكداش، وضع حقائبه من على الدابة وراح يدردش مع ذاته برهة عشرون دقيقة، وخمس ثوان ماذا أقول له يا سيدي ربي!! قبل دخولي عليه أنى رسول؟! أم مبعوث،أم مستفسر، أم مناصر، أم مستغيث، تحت ظلكم من بين القارات الست المتبقية لي جئت للسعي، وسوف أضيع تسعة، وأنا الرسول الثامن حسب السنين التي مرت.؟!وحتما كلتا الحالات لا تبشرني معه، على خير فيما أتحيله، وأنسحب إلى الوراء اتفقنا أم لا يهمني، وبصوت متعجرف أعاد له ذلك المنتصب المدجج، بسلاحه أنا النائب، والحارس في نفس الوقت، وبصوت مضطرب كرر النداء:

ـ قادة الحلاق ولد بوعلام الطحان قبيلته ليست بأحسن من أجدادك ولو، كانت من يغمراسن زيان الذي يجهله هو نفسه، وجل رجاله، الذين حضروا معنا البارحة المأدبة أقبل، عليهم جميعا جسد واحد بينهم ومائة وجه الآن فجأة، وبشدة الفارس الجبان رفع شمر الخيمة كون قدرا مهما من الآراء تجاه كل ما رآه، وتصادف معه، وهو في طريقه، إليه ترك الرسالة مطوية ثلاث طيات و أنصرف حزينا، لما رأى الشيخ المختطف يضاجع، دون حياء رغم تقدمه في السن أسدل الستار، والفتاة تتلوى، وتشهق، كما شهق هو كذلك، لما طال اشتياقه لأبناءه الذين لم يروه، منذ التسعينيات أصابه ظمأ، وعطش كبيريين، نحوها..يا نجوى، قد تفرقع البارود من مركز الحراسة المتقدم على الكتيبة بكيلو متر أنطلق غير آبه بهم، وبما شهد بالمرة قبل ساطوره تقبيلا خاصا، وأنطلق خلف رعشات الغيم، وهي تؤدنه، بخراب البحر ساورته نفسه بظنون، غير بريئة عائشة بنت الزهرة لا تكذب قط كلامها لا يسقط ترابا!! ساعات قلائل، وهو يعود ممتنعا عن مواصلة المسيرة أعترضه حارس ليلي ملثم لم يتبين ملامحه جيدا زجره قائلا وأنت...؟! ولكن أغلب الظن أنه أخاه، وقد نسي رابح الإسكافي ؟؟؟؟ عيناه على كل حال قد يكون أخاه من الأب، وهو من نفذ الأمر في رأس الفنان التشكيلي قبل هذه الليلة؟!! ترك الرسام يحدق جيدا في ماسورة البندقية، ولم يلبث أن صوب لأخيه من الأم من نفس الرباعية رصاصة، كالقناص،بين حوافر الفرس فلم يفر راكبا جواده إلا بعد أن أهدى له رصاصة أخرى، كالكلب المسعور!...نعم هكذا أحسنت

الرمي، قال: له رئيس التدريبات في غياب ضابط الخفارة الليلي، ثم عاد، وأستعد من زاوية أخرى تدريبا على إسقاط اثنين مرة واحدة؟؟ على كل حال هو من اسقط أخي، وآخر معه! وأنا مزهو بدم كل واحد منهما، ناداه حارس القائد فلب النداء على جناح السرعة: سيدي المكلف، بالأرواح بعث لك رسالة، وجدتها مطوية سبعة طيات كبيرة لست أدري مع من بعتث؟!! يندد فيها، بضعف بصر قناصه الخاص في إسقاط دفعة واحدة الزاوي، ومعه علولة قال في قرارة نفسه المتحدث ماذا أصابك، وأنت وعلد..،!! كنت تحبه كثيرا، وهو على الخشبة، وأنت على مدرج الجامعة، وتحاول كذلك تقليد فصاحة أمين الزاوي في القراءة، وبهاء جماله التلمساني غديت على غير ما يرام، وأصبحت تؤمن بخرافة الاسماعليين، وأهل الصفا، والساسة، وأكذوبة سدود المياه، بين اليهود الكلاب، وطغاة لبنان، والأردن، وسوريا وتركيا، ونساءهم الفجرة والسياسة،وأبخلوك أن تتأمل في المدينة،والأماكن السبعة..ومازال صوتك كالجمهور لايبارح بعد أدني أمك،وأنت تلقي بالكتب هواءا،ومن على الدرج لما،وكيف أقنعوك بغرق السفينة إن اليوم،وان غدا ولابد،وأنهم أحدثوا فيك شيئا معينا من عندياتهم،أو من السماء..نظرات سريعة تحولت من اليمين إلى اليسار،زجرت بشكيمة القائد الباسل قصد تمثيلهم،ألصقت كل حارس مع بندقيته،توقعوا تفرقع البارود من الطائرات الشبه حربية،وهي تشيء،بقصف متواصل أنطلق البوق هنا المكان،وعيون القادة تتتبع القصف،ثم تتتبع،وكأنها مخدرة،فهل العيون،كلها تنطلق صوب مسلحا واحدا الذي هو مريض

نفسي،والسخرية تعود،الى الوجوه..رويدا رويدا؟!وكأنه يلاحق جرذ من جرادة كبيرة من رجاله قال مبارك،ولد المخطار الهجوم الله أكبر!! لا نريد مالا،ولا جاها،وانما النجاة في بدء الأمر،تخيل نفسه يكثر من زجرهم اكثر من ذي قبل ويصرخ: افصلوا رأس من يسقط منا مع سبابته اليمنى!! أجاب الصف الأول سمعا،وطاعة،والثاني والثالث،والرابع،والخامس أعترض البعض فيهم،ثم تقدموا،كالآلات الطاحنة أدغموا الكلمات أخرقت روؤس البعض،وما أن بدأت الفرق تتراجع،حتى تحولت الخصوم إلى باقي الأدغال لنصب لهم الفخاخ التي قد لا يشعرون من أين تنزل عليهم كالصاعقة بما فيهم،حتى الذين صرخوا،وتظاهروا،بتفحيم العجلات،وتخريب أسلاك الهاتف،وحتف أيادي سعاة البريد،وانزلوا عذابا أسودا أليما،على ألسنة مدوني أطرافا محكيو السلطان،وبراقع الملك الشاذ،ومسح،حتى أثار أقدام الراجلة...

ـ يا ابن الصحراوي؟؟؟؟

ـــــ إيه لاندري بالضبط ؟؟

ـ اذن كبير الأمراء يأمرك بإشعار القواد وجندهم،حتى لا يرتكبوا حماقة أخرى،وهو في حالة غزو،أو صيد وتكون حتما كالكارثة،علينا اسمع يا ابن الصحراوي الرذل الأفحم الوجه،كالشنفرة..؟!وغرائب كثيرة بدأت تستهوي تعاستي،وأن نهايتنا نحن وان هم قريبة لا محالة،وهم عازمون على الاستغاثة،بأقطار أخرى أو ترك أبواب الزنزانات مفتوحة على مصرعيها كلها سبيلا لخدمنا كثر المعارضون و المؤيدون نبش الأطفال على جماجم الصبية

فألقوا بها عرض الطرقات الباردة ،لكنها يا أخي قدور نجدة نخرة،والسنون تمر،ببطء،كالسلحفاة خيولنا نحن أضحت فسكيلة لا محالة..ماذا أفعل يا ترى..؟!والقصف متواصل! أنفلت،وأسلم نفسي،لتحبل بي مدينتي كالتوأم،ولتنسجم مشاعري مع ذاتي أيضا!!! ربما نحن في مجرد رؤيا مخربشة شبيهة بحكاية جدته الكبرى! أتذكر،ذلك الشاعر الذي درس معي المتوسط،وهو يصرخ تحت أقدامي امسكوه!! امسكوه!! لطمته،وضغطت على فمه تسابقت مجاري دمه،كالطوفان من شدة الخوف حاول أن ينفلت لسعني بشيء ساخن يشبه مغناطيس،أو شرارة شاذة،ثم حاول أن يلتفت إلى كآخر...! ويدقق في النظر..كانت مخيفة جدا قسمات،وجهه تشبت بي مسكينا قلبيا...!الأمور،كانت قد ذهبت إلى غير رجعة...لما نفتوا،على ظهره بقع قطع الحبر،كسمة وأمارة،على الإعدام ركضت ذاكرتي إلى الوراء خلف آخر طاولة بالقسم أنتبه آه.. يادين الرب...!! تفطن لنا أبتعد تزحزحت مد إلي ورقة صغيرة بها إجابة الإعراب،وشرح الكلمات كل فرقة تعمل ما في وسعها،للقبض على الأمرد بوحنين،وإسقاطه في الفخ رغم تلاشي الأصوات فعلا أتفوه!! أتفوه!! على لقرع الزوفري،وجنونه الخفية الذين أشعروهم،بوجوده النائي مازلت لم أنس تفوقه،علينا أنوشم هذا على مؤخرات البنادق كوشمنا،للأمرد بوحنين! ضربه أحد أنصار الرواح إلى الجنة بعقب البندقية على ظهره،ورأسه أستشف في أشياء كثيرة،رمى دمعتين،وظل يمخر أنفه في التراب،كالبقرة المريضة،بجنون الخلايا تململ قدور الساطور،في

بعض الاتجاهات،وهم يتكاثرون عليه،ومن حوله،ترن همهمات تسحق شعارات التصفيق،والهتاف،ثم قال أكيد ((الشعروالشعراء في كل واد يهيمون))وما أكهرتني الأيام على الأمير عبد القادر إلا لقوله الشعر،كالطفل على محبوبته طز!! طز!! طز!! أيها الجرو الجرب،بالأمس،كنت تصول،بين الفتيات،والآن أنت !!بين أعدائك دوت،عليك التصفيقات الحادة،وتناهت إلى مسامعك عبارات الإعجاب،والترحاب،وأنت تمد لها،لئن تسوي لك من ربطة عنقك،ولا يستوي هذا،وذاك يالله! لماذا لاتتكلم مدافعا،عن ذاتك المريضة،والسوية معا؟! غرس قضيب من الحديد،في النار وأقتربه من جلده المصاب،بالمرد،وحساسية الأشياء،الغير الطبيعية تقدم كثيرا،وهو يحك جانبيه،بأظافره الغليظة،ومن يدري...؟!! أي ومن يعرف يالالة شافية،وحتى سيدي عبد الرحمان المجدوب مات له كلامه،وحرفه،وظل باردا في فم الأمرد!! إلى حين يصحو،أو يحتف رأسه،بسيف رجال القصر،أوعبيد المغارة،وساطوراتها التي طلبت رأسه،منذ ثلاث سنوات،وأربعة قرون ربما،قد يستفيق مع النسيج الكامل،لعبد الله بوخالفة، أنتحر! رمى نفسه من الجسر لا...! أعترض طريق السكة الحديدية،ربما،لكن الانتحار هو نتيجة فقط!!... وأناس كثيرون ما زالوا إلى حد اللحظة،والقرون الآتية معها يجهلون سره!!الذي حمله،معه،كالحقيبة،من قريته الوديعة،وأخفقه،بالمدينة مفقوسا،مثل بيضة توأم..نصف نحلي هو الآخر أصابه الذعر،ربما من رائحة الدم،والقيح،والترث كالقبائل،والنصف الآخر يظهر أنه..،كان في اشتباك

عنيف خلف شباك صندوقه!،أو كان يود النجاة بنفسه وهو يلتصق بالسياج،ثم يرتطم على أرضيته الخشبية الواحدة،تلو الأخرى،ومسحوق أبيض خاص يغطي أجنحته وظهره.

ـ رغم تقدم سني،وأنا أعشق الجلوس إلى صندوقه،وكنت أحبها بصوتها الجميل هي أيضا سرا تقدم عمري،وهي ما تزال تمقت لونه الدمس،ومنظره البشع الشبيه،بالشحاذ المنتفخ البطن من فضلات المدينة... ولكن آه...!! فما الذي يتركني أمزق كل جرائدي،حتى التي عليها صور سمير،وأنا أحدق فيه جيدا،عم تبحث يا سمير عزيزة عن روحك التي شظيتها خلف الجسر،تنام،وتغمض عينيك مقلدا صفة الأموات،ثم تنهض مفزوعا،وتمس أقضاب الجسر،لكأنك شعرت،بنفسك متا حقيقة بيني،وبينك بحور،والمجاديف مكسرة مرمية مع تلك الكتب الصفراء، والأقلام المتكسرة،على جانب الشط...والبحر،والوادي أملأت جوفك خطبا،اتجهت،نحو الكتاب مهزوما يستغفر لك سيدي عبد الرحمان المجدوب! ويمازح بطنك،بماء بارد كبركة منه،وذلك لما علم،بانقلاب قاربك،في نصف الشط!...حتى ألفاظي أضحت جثثا هامدة،على حافة فم أضح يجيد لحظات الانتقام،ولكن ليس هذا الذي قتل الشرطي الذي درس معنا هو أيضا! طلب مسكين النجاة،لكن،لأول مرة أحسست بنشوة الكارثة،والارتياح،لما البحر لم يلطخ برائحة الجثث،وحبر الكتب السائلة منها قصائد الغربة،والمنفى من ذوي الرؤوس الحلقة؟!!أواه...!! سأفقأ لك هذه

العين اليمنى،وأترك اليسرى،أم من ما شاء الله،والقدر المحدق بك...؟! ونية الأعمى في عكازه لا أحد بقي معنا سوانا قلت مرددا مستحيل أن يظل قاسيا،و كل شيء حدث بيننا،والذي لم يحدث بعد هو ما يركن خلف الذاكرة يا الهي أصوات خائبة ،و ليست بغريبة عني تصلني،وتهد أعماقي غائرة على كامل طولها في،كالرماح! تنمحي المسافة بيننا الحيرة تدب من كل النواحي خلسة،وتكاد تتقاطر،كالدماء السوداء،ويهمس بأدنى الغازي ولد زوليخة البزناسة الكحلة! الله غالب رغم تسلل مشاعري،نحوك سنة،اثنين،ثلاث،أربع،خمس،وهذه عشر سنوات كاملة أضعفنا فيها بغلا قويا..كان ينفض الصخور السبخة بملحها الصامدة من أماكنها ضاقت المسافات ،وشدد علينا الخناق،وأنت تدري؟ ولا تدري ماذا فعلنا معا تحت جدران الليسي، أي الثانوية بمشرطيتي الصغيرة وهي تزفر غناءا؟!،والرقص..خالد ومامي و حسني آه!!... لماذا ذكرتني،بحسني وأغنيته،والزمانJamais يظلم ياك.. الدنيا. فانية!...يوم عرض علي معذرة يا سيدي الخليل البسكري،و يا سيدي عبد الرحمان المجدوب الشاهدين الوحيدين،على اعتذاري،وحبي،للزوايا!المهم يا خويا عكاشة الجو هناك..كان ساحرا،ونحن نمني أنفسنا،بالشغل صيفا في حانة مسيو ديسكو فاردي،والندم الآن! يضربني على رأسي،بقرنيه أوصيك،وهذا ما بقي بيني،وبينك مادامت الدقائق،والثواني يركضان على ظهر غزالة،نحو سدرة المنتهى،وهذه الوثائق أن تنسخ منها لوحدك آخر الأخبار هناك،لئن تنقذ بها من نجوا من لطمات

الأمواج،والبحرالسفينة قد تصلح يوما ما،والورقة هذه التي تحمل قصة الجارية التي ضاجعت جدها،ثم انغمست ضارية في ولد القائد نهشا على مرأى من الجند مسكته،بعنف وراحت تضاجعه،بقوة لدغت فخديه ولم يستطيع في تلك اللحظة السيطرة،على مشاعره رغم الخوف الذي أنتابه! وقد يحضر أباه،على حين غرة،ويحزا لهما رأسهما على التوالي من بين مائة فارس...و أخيرا ماتا هيجانا،اقتيدا بهما مطأطئين الرؤوس خفية!...وتحاشيا،نحو أميره،لتواصل في نهش أحشائها،بعد أن فصلوه عنها،وقبل استفاقة الفيلق قيل أن الشاعر الذي كان ينظر مكبلا مات خوفا بسكتة قلبية! من جراء عدم توازي حرارته مع درجة غليان جسمه،سألهن بغثه أحد الحراس؟! لكنهن،ظلتن متشددين،على كرامتهن،بخرق بالية،لمدة ثلاثة أسابيع،وخمس،وعشرون دقيقة،وفي بداية الأسبوع الأول من رمضان، تقدمت التظلمات،ومعها بعض الطلبات،ولم يكن يخطر على صهر الرجل حيينها أن بقية كتائب البليدة يستغلون،ويهتمون بأدق الأسئلة،وهي جلها مزورة،لتبرير قتل الأطفال أحياء!وبعد ست ساعات كاملة وسبع وعشرين دقيقة،وثلاث ثوان أشار لهن،بالإخفاء داخل الخنادق،وملأ مداخلها،بالزبل تمويها لرائحة السلاح التي قد تشتمها كلاب النقيب الطاغية!!...وطلب من ناطقه بفتح الحديث،بنفس حدة الخلاف مع أبي تراب الرشيد،وتلقي الكل منهن في غيبتها نصيبها من الشتم،وبصقة لكل واحدة يتحملها بعلها،بغض النظر عن الشيوخ تشجع شخص مكلف،بصناعة الخناجر،بعد ما رأيت ومن حقي كصهر

لنائب الأمير أن أستفسر؟! وصاحب الهمة،والشأن العظيم،بينكم حينئذ..كان الفجر قد بدأ ينعكس على أوراق الأشجار،وربوة الخصوم بداية من قمم سيدي بلعباس أناذاك،وصاحب الهمة في مقامه الوقر،وبصره مركز،على غمد سيفه المعلق،بجانبه.ها!...قد عرفت سر الخلاف فرقع أصابعه الشخص الذي زعم أنه يخلصهم من الأمرد ودرس معه في صغر سنه جال بعينيه البراقتين في الوجوه،بما فيها وجه الإمام الثاني المكلف بفتوى،اعدام الكتاب،وشرر الفارس الباسل يتطاير من عينيه،ثم أمر من كل جهة تدعيم رأيها بحجج دامغة رضينا،بالرأي،ونعمة الجهة الأولى قال الإمام الأول،والمكلف، بالمشورة،بين الجماعات: لا أنتم،ولا هؤلاء. أولا،وأخيرا!..، من أختلف،حول الإمامة،والإمارة،والوصية،والخلافة من هنا. ولا!... من هذه!. وكل الاراء تؤدي إلى قتل الأعداء،والخصوم،وشل كيد ذوي البطون المنتفخة روثا أنطلقنا من رأي واحد،وغضبت النساء على ذلك، والنهر إلى الوادي يعود،وأنا صاحب الفكرة لاتلقون بالعتاب على الآخرين،وبعولكن منعتهم من مد كم،بالحقيقة!!لأنه بينكم،غير مخلصين لالكم،ولالنا لا أقصد من درس مع الأمرد!وبوحنا،بالسر يعرضنا إلى الصلب،والقتل يا أخي المخطار وأضاف يهمس له بأدنه،مثل ما وقع للحلاج،وابن حنبل أنصفوه في الواقع يا خويا المخطار،أم لماذا بعثرت أوراقك في الهواء خوفا من أن يعتر عليهم أعوان الأمير،وهم ملفوفون مائة لفة داخل جريدة قديمة؟!!! ملونة،بسبعة ألوان طيفية،وصورة أحلام مستغانمي تزيد من رونقها،مع شغفك على جائزة

اللوحة!وصورة أخرى يبصق،عليها لقهر بها حرمانه.. نطق المحرر الأخير للصحيفة شفاهيا أن طلبكم،بخصي الأسرى والعباد والبغال للجهد،وخصي طفولة هذا الموسم...أوجب خلاف آخر!ولكن مهما يكن قبل،والآن يا سيدي..لم تشأ لا أن تعارض؟ ولا توافق،بيد أنه قال في سريته،وهو خال مع شيطانه :

ـ أسمع يا أنت ؟؟ أتهددنا،بطريقة مضحكة جسد واحد،ومائة وجه،أم ماذا...؟؟؟ أهو يخدعنا بنقضه،لجوهر الأشياء!وحجابه لم يستشعرون،بشيء في سرياتهم المخولة لهم من الأمير رقم (٠١)؟؟؟؟ الأطفال من قتلهم،بالأمس ؟؟ الأمرد الماكر هوالذي أمدهم،بفكرة نبش قبور أمهاتهم فجر البارحة،وذلك لبعث آخر..أنا،أم أنتم..؟! أم نخصص لهم مآرب خاصة..؟ تنهداتك تصفر،على ثراء خلاف آخر،ودموع تقلى،بالعناق لم تجدها،سوى مع جارية ولدت هناك معطيات كثيرة،وفي غاية الجدة تفيد،بأنه سيضيع منك كل شي إلا من الورود التي ألفت تصلك مع رسائلي الود في كل دورة خصائية،للصبية من أمراء البليدة! عدت بعد أن هدأت عاصفة النقاش،فتحت الثقبة،وإذ بي أرى ما تزال تلك الصور،بحمضها الكيميائي البنفسجي الملوث،للغلاف الجوي،والبحر جراء تبخرها ملقية،على التراب،وهو يذرع الممر،ويعود بكل فخر،واعتزاز كالتيار،ومتيقن إن دخل معه في مهاترات سيريه من فوق نفايات روثه!! نظر في أمر قائد،وصلته،عليه عدة شكاو،وبدأت تنتابه تجاهه،بعض الشكوك،وهو يمطره بأسئلة،غير سوية،على

أمير جهة الساطور،وعلى نفسه! وما معنى أن يربع الرجل نفسه،فوق كل هذه الحشود،دون ولاء! ولابيعة؟! أهو من طينة الأنبياء؟؟؟؟! قبل كل شيء هو خائب،وينتابه أحيانا مس من وادي عبقر،أو كمن يغرزه،على ظهره،فيلتفت فازعا،برعشة لا تليق بمقامه!!! وأوراق ممزقة من أشعار،لربيعه الجلطي،وشيطانه لا يفتأ أن يزيده توهما أنه أصبح يتشعر، بجمال،وخلاخل الغجريات سرا!! وصله همس،وكأنه قالله،الأمطار لتنغسل خطيئة الخنجر،والدم،والتراب يا معتوه...! نادى الغلام فأتاه مهرولا على حدة سيدي؟! قلت ط...و...ز...ز...و...تعلثم الغلام في كلامه،والآخر كأن شيطانه أوحى له بما تخابر بذات الغلام! أضطرب مرة أخرى،وقال سيدي قلت أريد حشيشة،وحشية أفغانية،لتنفيذ الخطة ليلة العيد؟! لأن بينهم عمي،وخالتي التي ما تزال عذراء،أما ترى ماذا فعل حسب ما أشيع،بين النسوة هذا الجندي،لقد حز رقبة أباه،وزنى زوجة خاله،عن قناعة ضمير نتن!! وفرفر دم أبيه،لما تجادل معه،وهو يحاول أن يفتك منه،بعنف مزماره القصبي الذي.. كان يرعى به غنمه مسكين إيه...! إيه...! إيه...! يالشيخ قوزة كم... كنت مخلصا لذويك،وتربتك في سنين الثورة،والآن غنمك تتسابق،إليك صغارها،وتضربك على ركبتك برفق!! بكيت عنها،وعن تيسك قربة كوخك،هتفوا به،وكرروا،بتكبيرات متتابعة الواحدة،تلوى الأخرى!! لما ركل جثث أباه! ومسح شفرة سكينه بكم عذراء التي تحنطت،بمجرد أن أقترب منها...بقيت على هذه الحال،حتى ألقي بها،لسمك القرش من طرف رجال

السلطان الذين،وصلوا من جهة أخرى... مطوقين في طريقهم،حتى آثار أقدامهم الغريبة!!.

ـ حاول أن يستفسر الإمام الثاني...؟!! ثم ما لبث أن تدفقت،عليه تهوسات عديدة كل واحدة على حدة : أختصرها،بنتيجة لم يبح بها لأحد إلا لزوجته الرسمية التي خانته،وأبقاها مع جماعة مجهولة!... بسهول سعيدة وضواحيها..ففي بداية لقاءه بها، لأول مرة أعارته صورتها درسنا نحن الثلاثة،بنفس الثانوية،والقسم،والتخصص...في البدء،رفضت أمه يالحسين،ولدي نوار الدفلة لا يعجبك في الواد داير ظلال،وشوف الفعال،قبل الزين يا.!...

ـ رحم الله من أوقع... بيننا..،لأبقى أنا..القائد... لاثاني،ولا ثالث ولابعدي؟؟؟؟!

والأطفال الذين يولدون... يجب التفكير في مصيرهم،وإنشاء لهم مراكز بعيدة عن الطريق الجبلي هم الآن، أشبه،بصغار الغزلان،لا يبتسمون في دنياهم إلا مرة واحدة،يستشعرون بأنهم ليس،كبقية الصبية يتكدرون... ويباشرون في أخذ مهامهم في قلب البلد!! لا يتفطن لهم أحد! كل واحد ندربه على لهجة جهة معينة كبقية صباياها في شتى المدن!...ولكن ليس هو ذا جوهر الخلاف بيننا وبين الأمراء؟!ومحاولتهم لمس عباءة السلطان المخفي،بقصره ربما يا خويا المخطار نتصادف معه أكثر من مرة،وربما هو واحد من الرعية النجسة،ولا نعرفوه أبدا،أو نعرفوه واحدا واحدا! لسبب ما

نختلف،مع رجاله هم أرادوا إعادة السفينة إلى مرسى المدينة،رغم حبالها المفقودة،وفرار بعض البحارة ناهيك عن الذين شدتهم أحجار الشط...! فلفظتهم الموجة،بعد عشر سنوات كاملة جماجم،و عظام هشة،وترميم الطريق الآخر، لبناء مشروع سد لم يشهده التاريخ قط... يربط البحر مع القرية؟! وإعادة كتابة القائمة رغم أنف الأمهات اللواتي أردن الحبر المدون به أسماء أبناءهم على الورق الخاص بدل أن يتحول إليهم،وتسلم النسخة،بحبر آخر..،ونحن نريد تكليف أية عجوز كبيرة جدا!! مد الأصلية إلى أولمحامي تتصادف معه،وقد يشفق السلطان،على عقابها،أوقد يكون محامي من بين الأحياء فقط؟!.السفينة غارقة في الوحل،ونسمات البحر تتردد عليها نسيمات الحوت،والأسماك البريئة،وحتى الصيادون طووا صنراتهم إلى غير رجعة،لما شعروا،بتلوث طعم البحر،برائحة مجهولة،بعد العصر مباشرة،اختفاء رقصات التنين الجميلة الشبيهة،برقصات الباليهballet وزهور النسرين الجميلة مقطوفة بعنف وملقية على الطين فرت بعض عاملات النحل والقت الأخرى حتفها!! حينذاك،والغروب بدأ يلقي ظلاله على الأشجار،والصخور الصامدة أغلقوا الملف،بأمر من ظل السلطان،وداسوا نياحات الأمهات،اللواتي فقدن أبناءهم،بأحذيتهم الغليظة،ومعاطفهم الممزقة! فالغرباء نهبوا ما في السفينة من زيت،وخبز،وذهب،وآلاف صناديق pastis كانت مستوردة من مرسليا لحانة مسيوديسكو فاردي إلى أن وقفوا على شرايين أهل السفينة،وقلوبهم البعض قيل خفافيش،غدت تزورهم،ووجوههم بما فيها صبيانهم الهائمة،على دوام

الحال بحثا،عن الاختباء داخل حفر،غير معروفة،ومؤوناتهم على ظهورهم تحسبا،لفناء الكون إن اليوم،وان غدا ألتمس حلا وسطا ياقويدر،لقد حضرنا حفل تنصيبي على بوابة البناية،وصوت المزامير يضفي على الدائرة هالة،ونخوة الجيوش اللجبة،والعبيد،بطرابشهم الحمر محتفية بنفخ النيران،على حوافر الجياد،وهي تلعب،والقردة ترقص،على ظهورها الطويلة،وهو يواصل،في مبايعة جلهم،دون استثناء!! انتصف النهار،وأمره كبيرهم،بالتقدم،نحوه مد يدك اليسرى لا !اليمنى،وكأنه يدرب كلبه على التحية،بعد هرمه،والزمه أن يقسم،بأغلظ أيمانه أن يلزم رعاياه المشي خلفه،وطاعة رجاله..وأن يحرضهم،على البقاء،تحت نباح كلبه،وهو يبصبص على ظهور نساءهم،ومؤخرات رجالهم لا تخونني،والعهدة على هؤلاء الحشود هات يدك مددها جيدا،ولاتخف مد له في يده حبة خرذل!!ثم مسح على رأسه،بيده اليمنى التي لا يستعملها إلا للضرورة،ولم يلبث أن رشه،ببصقة في حبة الخرذل التي مده له بيده اليمنى !!...وأعتقد أنه يراها حقا أرجوك ؟؟! أخشى أن أحرج من قبل القرى،على البصقة أرجوك!... سيدي السلطان الواضح في مغزاه الغامض في كيد الأعداء السري مع رعاياه الجاهز،في بطشهم،رغم أن الحرس،وقوادهم جمع نفسه وهم مستعدا،واقفا،لإطلاع البعض عن حقيقة مرة،كالعلقم،وسر صلب جدوده،للحلاج،وابن حنبل،وابن رشد،بيد أن حرسه الأيسر فطنه،بابن خلدون،وذكاءه الخارق وخوفه من نقاشات وتحاشيه،لأسئلة الفقيه بن عرافة الذي كان سمة زمانه،ونزاعه الشعري مع بن الخطيب!!لقد بدأ

فيلسوفا، وانتهى صوفيا، مثله، مثل ابن رشد!! لكنه لئيم جدا لم يستطع قهره أحد من السلاطين و لا حتى تلميذه،وكاتبه شرف الدين في مسالة تسليم مفاتيح دمشق،فهو، كالزئبق؟؟ لقد أوقف،لهم أوامرهم،وقصره،على قرني ثور بما فيها حاشيته،رغم يقظة كبير الكبرنات والمتبقي من نسل سلطان بجاية الذي ظل يهاب حافة الزقاق القرميدي المليء،بالجرذان،والكلاب المصابة،بمرض اللشمانية،وهي قد تباغث القصر تمردا في يوم ما خصوصا،وأن قيادة الجبل،وقوادهم قد تعمقت،بينهم الهوة،على أتفه الأسباب،وعلى أتفه الأسئلة فضلا على افشاءات السر المتوزعة على حاشيتهم الملأ،بالذباب الذي بإمكانها نقله هذا مع المرض عن طريق اللسعة،وطنينه إذ ولابد أن يستشير الأمر على قواده،لأن الكارثة جد خطيرة وأن نبحث على توأم بيضة واحدة قبل إستفحال ذهاب رائحة الجثث،والحكاية وقد يرهق مزيلها،حتى المكيفات المستوردة من هناك.

. شتْ ...!! شتْ!!...

قلت... ماذا؟! يالقرع الزوفري واشْ هذا ثاني يا سيدي ربي..!! يادينك انه مهما بلغ البنايات،وحل البحر،فلن يبلغ القرى أو وسط السفينة،أو لوحتي المعلقة التي سأنال بها الجائزة الكبرى هكذا تتبدى لهم في كل شيء سر غرقها غامض،لأن رياح النيل..كانت في اتجاه شراعها تماما وقلما تعاكسها،حسب الإناء المطاطي الذي قذف به،فجاءني من خلف عمود الكهرباء،ليلطمني فعاكسته الرياح بفحيحها،وحتى شراعها لم يكن ممزقا في

نظر بعضهم،ونحن المتمردين نؤمن بالثورة،وتحرر هذه الأرض من جدلهم المادي،وضع رباعيته بمصورتها الضخمة،ألتفت،إلى الرجل والى الجراد،وهو يهش عليه لئن يفارق الأرض ويصعد نحو الربوة كأن يحرسه،لقد أزعجه بحسه، لكن كبير الحراس ظل منسلخا لوحده،وأحيانا يتكدر،أو ربما لعدم فهمه،لكلمة الجراد وماذا تعني عندهم،بين قواده،ثم يعبث،بساطور تفنن في صنعه له حداد..كان معهم في بداية الأمر،وأنضم لجهة أخرى منشقة عنهم!! ولد حمو القمار! تبين له أن المحج الوعر المعشوشب،كمسالك السودان الوعرة،وقصبها،لا يؤدي إلى المهمة،وهو يتذكر جيدا هذه الحفرة بداية مراهقته،وصطيف ولعبة المص،مع الجراء الصغيرة،وتكسير أنابيب الفوسفور،والعبث،بزجاجها،لعدم فعاليتها منذ سنين.توقفت البغال مثقلة،بالبضائع دفعة واحدة؟! مع إستبطاء هدوء غبار حوافرها في السماء! بعض الأجساد..كانت هناك مصلوبة،على ليل مدلهم...وأصوات مدغومة تردد..آيات..الجهاد والتجهد،بسيوفهم،وكيفية دخول جنة الفردوس : رفع الشيخ عصا الزبوج وأردف يقول جاهدوا،بأموالكم،والآخرة خير لكم،وأبقى من الأولى!! فجأة رست حوافر البغال،وهي تثير الغبار،تقدم منه،وسأله قل انحنى من فوق حصانه رئيس البضائع..حركة جماعية فعلوها حتى أعوان رئيس البضائع،وهم على ظهور بغالهم سيدي؟... ما استغربت من شيء إلا وأجبناك عليه،وهذه تحية خاصة،بمنطقة أبي التراب الرشيد،بالنيابة..جحظت عيني الرجل وقال نائب الخزينة،ولكن لم نتفق على هذا وهذه الصناديق ثقيلة

جدا؟! على الدواب،والطرق،غير سوية وغير مؤمنة لئن نتركوكم تواصلون مسيرتكم،نحو بقية الكتائب غير أنه سرعان ما عض على لسانه،لما شعر أنه يوجه لهجة شديدة الخطاب،للرجل لوى لسانه،وتذكر مستدركا آه...! لا أقصد الخوف من كيد رجال القصر الجبناء،وانما فكرت في الاستطلاع،بسبل أخرى، تسد الطريق،حتى على الأمرد الرائج،في الأفواه والجرائد الذين اعتقدوا انه أنثى،وليس ذكر وهي السعلاة،وتارة ظنوا ما هو إلا النسناس،وهي خلاصة راع عثر على خطواته،بقمة طود كبير؟هتف الأطفال،بالفكرة الصائبة مندفعين،على بوابة سوق الجمعة الساحر..هتفوا متشوقين،لنهاية مطلع الحكاية،وتكدر الرجال،بخفرة الحراسة بما فيهم الغتماء،والعجم، وتصلبتن النساء خوفا،على افتضاض بكارتهن،للمرات العشر،أو العشرين!! وغلق الطريق المؤدي،إلى بوقبرين،لأنهن اعتدن التسلل،إليه،بين أوراق،الأشجار المتعانقة،والحشيش المرفوس،علية زهور النسرين بأقدامهم الوسخة! تحت أقدامهن للتذرع،والبكاء رجوتا فيه،لأعادتهن إلى سن شبابهن العذري أخفيت جريدة الخبر التي أعلن فيها الصحفي،ببشرة نهاية ما هوغير مديني ولو كانت القرى معه،ويشيد،في رأيه،بابن خلدون،وغايته،مع الحضارة!! ركض بتخمينه،نحو التلاشي،مدت،إليه شقيقته القصاصة الأخرى...،غيرالتي بها حفل تكريم،وصورتها وزجرها من قبل رجال القصر في آن واحد! الصورة عثر عليها جواريه،بمقامه،ومعها،وريقة بها معادلة خاطئة،لمكونات الذرة،وهن ينظفن فراشه،دون أن يشعر نسي أن يدسها،تحت وسادته قصاصات

أخرى...مفرغة،وحزينة،للغاية كعشية إغتيال بختي بن عودة في ملعب حييه،ولربما التي عثرت على الصورة هي التي أبقر بطنها المنتفخ في ذلك اليوم نفسه،وعلى الجريدة التي مزقتها مريم بعيدا عنهم،وبها بند عريض،وبخط أحمر،هؤلاء الصبية،هم براءة المتعة اخرسي يا واحد الكلبة!... بنت الطاغية!...هذه لحظتي معك وحدي كم كنت أمني نفسي،بنزوة معك،غير منتظرة سأقتله قبل أن ترميه ماذا يقول الآخرين الذين ضاجعوك؟؟! لمن هذه البصمة الأولى،وهذه المغروزة الخضراء،على بطنك passe toutوخربشة حيوان السرطان،بجانبه لو علموا،بك أسمعي أخطأتى معه نما،وكاد أن يعصف،بالأرض،وهذا حتما لا يشبهني في شيء لونه الأسود،كالغراب،وملامحه يحملون قصة حب أخرى قريبة من الليلة الأولى التي زارك فيها الحيض أنا الوحيد،بهده المغارة الذي بإمكاني أن أبقيه،فيك أسبوعا كاملا! أنت في أعماقي!...شدها من جيدها جيدا،وكرر لها الغيث أنت في أعماقي!!...الأخرى كم ضاجعك من مرة،ودك أصابعه في حفريات جسدك،السي عيسى الشلفاوي،مداح خضرة الروجة مروجة؟؟؟ الخمر،والأشرطة للكلب بياريديسكو فاردي زوج أم ريمو الزاوش،لكنه ما مسها قط...مسكين.! سقط مسحوا به طرق القرى،ثم رمي وسط المدينة،بساحة أودان،ولربما موعدي يشاع أنه،قد أقترب،والأجراس بالقصر قد تقرع،دون سابق انذار خارج المدن،وعلى بوابة البحر،لكن أتعجب من عدم فرار الأسماك،والحيتان،لكن ما عدا سمك القرش،أسمعي يا واحد القطة

القوية النفس،والروح معا؟!!هذه أسراري،وليست ما أخطر منها ما عندي تماما،مثل ما تخفين،بين رجليك ولكن!...وإلا أن سحر جنوني،والمحشو فيك الساعة أرغمني،ودون وعي أن أبوح لك،وأنا أمثل،وآحاتي،وتنهداتك،فوقك،ثم تعود إلي منك كأنين الحلاج،وصلبهم لأبن حنبل،وافساد،عليهم صفوة دنياهم..مات الحلاج مسكينا مع سره!والتوحيدي أضرم النيران على كتبه،كالعفريت،وهو يبكي معصب الرأس من وجع المصيبة... سط...! سط...! سط ...! لطمها،بقوة بيده اليابسة مزمجرا فيها،والآن لست أدري مالذي جعلني أسرد،عليك كل هذا وأقص عليك كل شاردة،وواردة؟؟؟ وأنا مستلقي على هذا الصدر البارز الذي ينسيني بعض الشيء رسولي التاسع الذي أرجعو لي رأسه في قفة،على ظهر جحش لا يشبه هذه المنطقة أبدا..والفرس احتفظوا به للذبح ما،وصلني صهيله ولا ...!ولا صراخ رسولي الذي نقل الخبر، ثم عاد يطل،عليهم خفية،لفقدانه خيط مهم في أصل الحكاية،فعلوا به ما فعلوا!!ورفيقه رموا،برأسه في قفة،كالكرة حتفوه!...ذروا عينيه ملحا،وغرزوا طبلتي أدنيه،بجدع سعف النخيل،توقف الحمار وتسأل وهو يحمل الرأس،بعلاق حديدي حاد، كالمسمار الغليظ حتفوه،بالساطور لا !بالسكين،لا! بالسيف،لا! ولاأحد يعرف،ولاأحد يعلم،أطلقوا عليه الكلاب المدربة،لفصل الرأس عن الجثة حسب هذه البقايا،بحافة الرقبة،وهي تقطرسيل من الدماء،لتستقر،برحم الأرض السبخة لم أفهم شيأ،منهم رفضوا الهدايا،ورفضوا الصلح!،كلنا في مقام واحد من يرغم

أحدنا،على الآخر إلا الخصوم!المصلحة واحدة،حتى مع مافيات التهريب الذين أناروا لنا الطرق الملتوية،والحيل في السنوات الأولى،والتكاثف مطلوب.. الرأس هو رسالة،لرحيلي من هذه الجهة،حتى الذهب،والفضة، والزيت،الفرينة نهبوهم،وتركوا رجاله السفينة خاوية إلا من خشبها البني الميت،فوقه السمك والحوت،اللذان لم يستطيعا العيش،بالبحر الأبيض المتوسط! يريدني أن اقسم،معه الجواري،وأن أسلمه خالة السبعة دراويش التي أبقيت،على عذريتها،لمعجزة بها،أم هي خدعة من رجاله،للتصادم مع رجال السلطان؟!أو أية دورية ،بوجهها المائة،قد تكتشف في طريقها بقايا السفينة،أو منديل خالة السبعة دروايش،وخادمة قبة سيديها لخضر بن خلوف!! أو إحدى الجثث،أو شبهها،وهي تتصارع مع أرواحها إن لم تشتم أسمالها المدمية الكلاب الضارية،بأحزمتها،على المدينة،وشوارعها الضيقة،والواسعة في آن واحد المهم،وضعوا قدماه ندد ابن حنبل نساه،ثم جاء دوره،على مشكلة الخلق! ربطوه مع جدع الشجرة،وأجهزوا عليه،بوضعه،على شوك خاص، لمدة أربعين يوما.. فيعز الحر،والعطش يملأ جوفه عن آخره،ولم يتبين من رجال السلطان،أي شي ء..ألتزم..الصمت،ثم تركهم،وشنيعتهم المعزولة.

ـ لم نكن نتمنى كل هذا،ولم يكن قصدنا منكم شتما،ولا سبابا؟؟؟

ـ ضع عنك الرسالة،وصحف المجلدات البيضاء،لقد أخذوا كل شيء،غير القوائم،والصور الذين يجب حتفهم عاجلا!! ولاأحد أعترض،ولا تفطن لكم

أحد لعدم تسجيل على الصحيفة،بأن ذلك دين،عليكم منا؟ تقدم يا رجل،ولا تخف،فإننا لن نسألك عن المائة فارس الذين غدرتم بهم طيرا،برؤوسهم على الحشيش،وصخور الوديان ما اسمك الحقيقي؟!! حرك الشخص رأسه يمينا وشمالا...الكلب ولد الكلبة! بعث إلى رسولا أصما! أبكما! لكنه يبدو قوي الرائحة عاد ابن المخطار من المهمة الطويلة،فوجد الهيئة التي تركهما،عليها ما تزال كماهي قرابة سبعة أيام،وهو ينادي الرجل،وكلاهما ظلتا خياشما أنفه تبعث حرارة خاصة تجاه الآخر!ربط حماره،وشعر،بأمور روحية تلزمه على متابعة الأمر،دون أن ينبس ببنت شفة،ابن كروم زاد في زم فمه جيدا أكثر من ذي قبل،وهو يردد بنفسه ابن المخطار يا السي قادة الحلاق بن بوعلام الطحان؟! أنت ولد دشرتي،وانك تقاسم كلابهم الألمانية في إحساسك قرأ قادة ما تخاطر بذات بن المخطار ورد عليه محدقا،فيه من منا يا واحد الفرخ! يقاسم الكلاب،كيف أحسست بذلك،ثم عاد،وألتفت يردد،ويهش بنفسه..كيف مات صوتي على ظل شفتيه انتظرت نوعية صوته،أهو أبكم،أم خدعة لي ولنا؟؟؟! رمز لي اسمي في الهواء،للمرة الثانية،وظل ينظر إلى بشيء لاينم عن خير،كالذئب المشكاك في جيفة ما وقد تكون بها فخاخ تنتفضه،بغبارها المدفونة،تحتها كيف عرف اسمي الرمزي نزل ابن المخطار من ربوة صخرية،وأمر عن طريق الحركات الشخص،لئن يبايع القائد،وأنه ملكا لنا،منذ الآن،وعودته باءت مستحيلة،إن لم نسمع منه شيئا،ولو حرفاً طائشاً ينجي به نفسه من بشر رأسه،كما فعلوا هم برسولنا..كانت الحشود كلها

تنظر،إليه متعبة،وطلاسم الرعب تسمل قلوبهم المريضة،وزاد خبر تصليح السفينة إن لم تكن مجرد إشاعة،فهل يجف البحر،ويحرق الأخضر،واليابس فعلا لأخرج ندا،بندا!...مع ما يشبه الأمرد بوحنين،أو الأقرع الزوفري؟! ولا ثالثنا،سوى العتور،على خيوط من الهواء،كنقاط الصوف الصغيرة جدا!... الزوفري التي ألفت التبرع عليه، ببعض الدراهم،والملابس البالية،وحتى البئر الرابط،بين الصحراء،وشمالها نردمه،بآخر قطراته،ونرعب أولاد الناصر بن شهرة،وأهل البيض،والعريشة،ومكمن بن عمار،فمزمار ذلك الراعي مسكين تهشم،وتيسنا غدا لا يفهم لغو أترابه،تحركت الأجساد،بعد أن تحنطت،لمدة ساعة كاملة،والنوم يداعب الأمرد من ويل الجراد،وخائف أن تتسرب إلى فمه واحد من الجرد،تقدم منا يا رجل لا حاجز أمامك الآن،ولكني واثق أنك تسمعني،وتسمع نداء،وترى عكاشة،بجانبي واعرف ما تقول،بنفسك آه!...قد منعك حاجز آخر ثانيا..أنى أراه أعترضك حقا زحزح،أم لم يزحزح،المهم،نحن لك في كرم الضيافة،ورجوعك،كصهيل فرس باتت فاشلة!!ولكن أنت منا،ونحن منك الآن...أحسن مهامك أن ترحل بالرسالة على بغلة،ونمدك،بقوة خارقة تحملها من قفاها إن حرنت،أو...إن أرادت الجفل ضارية..أمسح على حوضها،برفق لتشعرها،بأماني الرحلة.!..،لأنها قد لا تتحمل كثرة انتظارك،على مدخل القصر بغية التفاوض،مع السلطان باب الخفارات...! الفارقة بيننا،وبين القصر كيف نجتازه يا سيدي ربي، أو قد يشوهون له رجاله مقصد الرسالة،أو مغزى الزيارة؟!! حراسة قوية،ومشددة،لذا

يتطلب منا استمالة عاطفتهم،أوالاشتباك مع حرسه السود،ويقال أن السود قلوبهم بيض كالنور،والبيض قلوبهم سود،كالفحم قاطعه بحدة،وسخرية،والشقر تكلم يا معتوه؟! ولوننا نحن الذي تغير طيلة هذه عشر سنوات شوف الله يرحم يماك العزيزة!...بركاني من هذا الكلام الخاوي،وهدرة الشوابين والعجزة المهم لم نظفر بشي من أسلحتهم،بل تقدم لسلطان القصر أنت شخصيا،وان عثرنا على ما يشبه لقرع الزوفري مات في مكانه خوفا،دون رصاص،أوحزة سكين،وبعدها نرميه،بساحة بلاص دارم،والوهرانيون يتشفون شماتة فيه..ظل الكلب يلعق في قطرة دم صغيرة،ثم ما تلبث أن تسيح،كقطرات مداد وشم خضرة،وهي تثقب بها الجلود الناعمة،كانت ما تزال تنزف من جثة متفسخة،ويتجول،بذيله المبتور،بين الجثث،وأخرى يتشمم كل صغيرة،وكبيرة بحزامه المرقم،حسب فصيلة دمه ٥٠١ الكل نسي ما حدث لموسطاش الدكتاتور المتقاعد،وبالغوث،وقصة السفينة، والقاربان اللذان،وجدا مجرد أضلاف من الخشب رميا،على شاطئ بحر سري جدا يوم صبيحة السبت دار الحزام على الكلب،وهو يتهيأ،لمطاردة تلك الجرذان المنتشرة على بقايا أشلاء جثث متعفنة،ومعها قرد غريب. كان جاثما فوقها،كغراب السؤ،أو ربما،لشعوره بشيء ما إعصار زلزال،محرقة كبيرة سقوط نيازك،مجاعات،وربما،حتى انقراض أحياء،ومدن وهجرة النحل،لوجهة مجهولة أقفز وظل يعوي،وبقية الجرذان تتابع عواءه،كأنما تقاسمه محنته،بغريزتهم اللبقة طار الحزام،وضار عليهم من جديد مهاجمهم الواحدة

تلـو الأخرى،بجثثـه الضـخمة،وذيله المبتـور يهـش علـى ظهـره الـذباب طـار الحـزام!. إربـا!... إربا!..والقطعـة الحديديـة المرقمـة فتاتـا!.. فتاتـا!..والتي حسب ما أشيع أنها مستوردة من هناك،وصانعها ماهر تفنن،حتى في شكلها الدائري،وقيل أنه يكره بني كنعان الذين اجروا له المحل،بشارع الشهداء!! يكـرهم لأمـر شخص..أسـتغرق،في صـنعها ربـع قرن،وقيـل نصـف قرن،وقيـل ثلثه،وما اتفقوا،عليه أنهم تفننوا في زواياها الحادة ربع قرن،ومعه أخواته،والكل أذان،بمـدة زمنيـة معينـة،وغير مضـبوطة الرقم..المتخصصـون فـي الأوقـات هـم أيضا أختلط حابلهم،بنابلهم من جراء هذا العدد أهو،للأموات،أم للأحياء،أم للشبقيين،أم لكلا الطرفين وفقط؟!!أنا لوحدي،وبمحظ ضميري أيقنت،انه لم يختلط نـابلي بعد،فقـد عرفت،بـالمرة ذلـك الشـبقي مثل جرب الجـرذ الـذي تـدخل،في شـئوني الخاصـة بـي كثيرا،وبعتـر لوازمي،واوراقي،وفرشـاة ألـواني الذين،اقتنيتهم من إسبانيا ومعهم رائحة الأندلس في سنوات مضت،وصوري بشخصـــي كاملا،وســـط عاصـــمتها الجميلـــة مدريـــد مغريتي،منـــذ قـــرنهم العاشر،وقروني الخمسة الكاملة الأخيرة ومع ذلك فقد هلكت الفئران أجزاء عريضـــة،وكبيرة جـــدا منهـــا،ومن مســـوداتي،وحكايتي بينهم،وأنـــا أجـــرب الكتابة،ومعهم أجود المجلدات التي تآكلت حواشيها،فلم ولـم ارويها،لأحد أبقـتهم سـريتي لحاجة،بنفسـي،حتى افـزع الصبية،مني..تسـمر بلغـوت أول مرة،بحـي قومبيطا،تقـدم منـي بعـض الشـي،فربما قـد تناسـى،وجودي فعـلا ومأسـاتي معهم!!تـذكر عاشـقته يامنـة!المنتحرة،بالماء الكمياي!!سـاعة اغتيـال

علولـــــــة الـــــــذي تصـــــــدق،عليها مـــــــرة فـــــــي شـــــــهر رمضـــــــــــــــــــــــان،بحذاء،وعباءة،كمحتاجة،وفقط.!ووهران معها،والطحطاحـــــة،وبيتي،والكمين،وهو ينـــــاجي جـــــدرانها المتكســـــرة رطوبـة،وأماكنها الجميلـة،فان لـم أسـارع،بتنظيفها مـن معـاجيين أنابيـب ألـواني الزيتية المرفوسة عمدا رميت،برأسي أنا كذلك،لأنياب كلب لقرع الزوفري،أو ألقيتـه بعيـدا،كالكرة بـين غربـان الزوابـري حتـى لا أهجـر أحيائها،وصـبيتها مـن شدة الرائحة النتنة،وصوب السفن الأسبانية،ومراسيها أيضـا..وقف الموسطاش بعيدا عنا محلقا في زاوية عالية من زوايا قومبيطا،وعليها ٢٢ جانفي ١٨٧١ فمن خصالي التدخل في ما لا يعنيني،فأنا لا أشبه الولي الصالح ..البعيد عن الأنظـار، وخصوصـا فـي كلامي،دقـق فيهـا النظـر جيدا..ابتعد،بكيسـه شـيئا،ثم عاد،مسح المربع المرقم فيه العدد النذر،بكمه صعب عليه فهم تلك الأرقام، ظل متعلقا،بذاته وأسرته، ويبحث عن معنى كاليدونيا الجديدة.. عصي عليه الأمر أكثر ما أكل،ولاشرب ،ولاصام وهنا قاسمت ذلك الولي الصابر على الجـوع لكـي تتحـرك حواسـي الخمـس، بتجـدد الخلايا،فبعـد ان تنـاول الوجبة،قارورة جبن،وقطعة خبز متصوفة تنفر منها حتى الذباب،وما زاده نرفزة هي الورقة الصغيرة التي لم يتلق منها،بعد أية إجابة من ريمو عشيقة مسيو ديسـكو فـاردي، ولـم يلبـث رغـم منصـبه أن يتـوارىء أحيانـا وراء شـجرة التين،دون أي اكتراث لتقته بنفسه..كان تلك اللحظة يرتعش،ويده تمخض جسده مخضا،حتى يطير منه مقذوفات المني بيضاء،وعليه تفشل ركبتاه،ويظل

يتألم من ظهره طوال فصل الربيع إلى أن تنسف الرياح الموسمية على نوار الدفلة،بعد أن يجف رحيقه من شدة التفاعل مع زمن الفصل في كل سنة كالعادة،ليعلن على تكاثر الخلائق حقا..لقد مرت ساعتان كاملتان على بقاء،بغرفة الإنعاش الزجاجية،فوق طاولة الاستعجالات،،بحيث انبهروا كثيرا،لما لم يجدوا،بيدي تشكلات،وشمية،أو أية علامة خضراء،وليس بعيدا،عن المدخل الرئيسي،للمستشفى..كان صياح الممرضات وهن على علم بذلك،وهن يتنادين،بين الأورقة،ورائح الأدوية،والأقراص زيادة على الضحك الهستيري المبالغ فيه،وحلويات العلك،وأسنانهن تصطك مفرقعة فقاعاته،وعلامات السخرية بادية على محياهن رغم سنهن اللواتي بلغناه يأسا من الزواج ناهيك عن التي تداوم،بالليل مرة،وأنا على السرير أتوجع، وأدني يصلها صوتا مبحوحا خافتا جميلا،من جراء المتعة..من يا ترى،ولمن هذا الحس؟؟؟ سفسفة الجرذان،أم الصراصير،فأجاته يقبل لسانها،فتظاهر،بفحص أسنانها،بصفته يشتغل أيضا،كممرض أسنان، لدى البعض الخواص طوال عطله الصيفية..رد الباب،بقدمه في آخر ساعة من إنتهاء ليلته،وتسليمه مهام المداومة،للفوج الأخر!... خيوط الصبح،والأذان انطلقتا في ساعة واحدة،وهو أيضا استدار،بظهره،نحو النافذة،وبيده جريدة الخبر يشقها عنوان عريض عن مأساة الشرطة الأسبانية التي اقتحمت الحرم الجامعي بابلودي أولايبدي الأشبيلي والقبض على المهاجرين أغلبهم من ذوي الجنسية الجزائرية اليوم صباح الجمعة خلل واضح،وتظاهر بليد،وهو لماذا يا ترى

يحمل صحيفة ١٠ أوت عدد ٣٥٤٦ وهي قديمة جدا حسب تاريخ صدورها؟؟؟!وجدتها مكمشة،وملقية في دورة المياه.و بها،كذلك حسب خبر آخر طارى جدا،وهو انه في ساعة واحدة أمطرت فيها الدماء،ولكنها سرعان ما جفت.. بسرعة فائقة لا توصف..فالأموات لم يجردوا من ملابسهم،قبل،تحولهم إلى جثث،بيد أن الكلاب ضارت عليهم فلم تترك سوى ملابسهم،والذباب ألتصق بهم من غير أن يطلوا،عليهم تلك المادة اللزجة الجذابة معها شتى أنواع الحشرات الغارقة في وسخ الأحياء،وقماماتها ورغم ذلك بدأت أشياء غريبة تتخايل أمامي من داخل فراشي،وتدفعني إلى أن اشعر،بأحياء،وهراني،كحنان طفلتي التي فاجأها ماء خفيف قبل أوانه وظلت تنتحب تحت الغزاة،والمغتصبين لشرفها البكر.عدت من غرناطة فوجدتها في شوارعها تتخبط تتأمل فيها،ويكاد يصيبك الغثيان المؤلم في حلقك،بحيث يود أن يقلب لك أحشائك عن آخرها،والضغط بداخلي يتصادم مع مزاجي تحت ضربات المدافع الأسبانية المصوبة نحو سفينة خشبية كسفينة العثمانيين الحائلة بينها وبين مدينتي الوديعة التي لم يطرأ عليها أثر الحال لجمال طلائها،ولونها المائل إلى الشقرة العثمانية،فبعد أن تقبث ظلت ألواحها نخرة خربة، وملهى للصبية،والشحاذين،والسكارى،هواة حرفة الوشم،والكلاب الضالة الهرمة،بجحورها الدهماء،وهي في أوج هشيمها،غدت حبالها المغرضة مشنقا مع مرور الحال،لمن يرغب في الانتحار،والى الأبد!! وكنت ما أن تفرغ قارورة كاملة،بيدي لإنعاشي،حتى يثبت لي أخرى..الوجع!...والنيران والوطن

يئن على حافة البحر المتشبث،بسفينة النجاة.. نهضت كل القرى في تلك الصبيحة،على مدنهم،وهي غارقة في ضباب البارود،والعويل،والطبل،وضرب الدفوف ومن يلتفت يجد جواربه مزقت وهو يمسح عينيه من الكرى،ورماد مسيلات الدموع والنوم يغالبه من كل جهة ساه في الدمار،والخراب،والنيران السحرية الممتدة إلى المداشر،والقرى مبعثرة بالطريقة العبثية التشكيلية،والتي استهوت وأبكت، حتى المسرحين والفنانين،كعمار العسكري وهو يفتل شواربه بسخرية مناما،ويحتفظ بجزء كبير منها على جدران غرف ذاكرته لمقارنتها،بكوارث القرن الشرس الذي سبقت أحداثه رؤاه،وخلفه ضجة الجراد،والجرذان الشبقية الهائجة في تكاثر،على المداشر،ولما أورق مذكرتي أبتسم في وجه صبيتي الكتكوتة بألوان صورتها الشمسية الزاهية،وأتذمر أني اختطفتها لها في يوم مشئوم مساء ٠٤ من أكتوبر،وتليه مباشرة صبيحة ٠٥ أكتوبر مسكيناً صاحب الأستوديو،وعدني على هاته الصبيحة،وفيها بالذات أسكنوه رصاصة طائشة برأسه،وبعد أيام كثيرة، وجدت داخل صندوق بريدي الظرف وعليه الصورة،وكلمة إعتذار من ذويه كم بكيت،عليه في تلك الليلة،وهي تواسني،وتقول لي لئن دموع الرجال مضرارة غالية جدا!...عليك أن تخشى،وقد يغضب علينا الله،وعباده،وسيدي الهواري،ويتكرر نفس المشهد لبونه،وبنزين السيارات،والشاحنات الذي بدأ في السنوات الأخيرة يزيد من تلويث جوها العكر..وهو ما زاد البلد،والأحياء،والقرى توثرا،والمدينة ومعهم الكلاب الضالة أيضا التي ظلت تطارد المصليين،من صلاة

الفجر،والصـــبح وباعـــة الســـمك،والخبز،والجرائد،والوافدون أيضـــا إلـــى دخان،ومرقص بيتش ميامي،وهم يشتكون من شدة العياء،والسكر،وفي البحث عن الأيادي الناعمة الراقصة المتناثرة تحتها قطع الدراهم الحديدية،وقاعات الاســتعجالات كلهــا مهيــأة تحســبا،لأي طــارئ عنيــف،بين ســكان حــي النخيل،وأولئــك الطواف،بالمرقــد النــاعم.. رأيتــه بــالمرة يمســح،بالجريدة حذاءه،وهو يخلف وراءه دورة المياه،لما انتهت ساعته بدأ لي،وكأنه العمر ما فتئ يتقدم بي..نحو الربع الخالي،والتعاسة تجعجع دنيايا،وأن تكون ربما هذه هي استفاقته الأخيرة!!على يد ذلك الطبيب الشرعي المخول له العرش معاينة حالته،قبل أن يبعث خارج البلد رفع رأسه إلى الأعلى،فلم يتصور أمامه،سوى خيال يشبه سيدي عبد الرحمان المجدوب ما أصعب هذه اللحظات الوشيكة الانفـلات معهـا روحـي.! الجـدران شـرعت تبعـث بـرودة قاتلـة مـن جبسـها المنمط،إذ أن عمال الرواق بدأ يصلني صياحهم دفعة واحدة.. المدينة التي ربوا في تلا فيفها أفسدها لقرع ولد البشيرالدونجي الخطير وهو ما أختلط علـيهم الأمر،فتوهمـوا أن لقـرع الزوفـري هـو ملـوث المدينة،بأوسـاخه،وكلبته المقطوعـة الـذيل ليلـة عـراك صـاحبها،مع رجـل تيهرتـي حر،والفلاحـون،بينهم يحـاولون فـك نزاعهما،حـاول الخصـم أن يقـذف فيـه مـنجلا صـدئا.! فأخطأ بطنه،فكانت الضربة من نصيب ذيلها،والآخرين ..الأجلاف يصورون،بأعينهم سخرية المشهد،وقهقهاتهم تترافع بينهم.آه...! من هذا المرد؟! دفة الباب تنفتح،بهدوء،لوحدها انطلق زمن بداية ساعة العمل انتشرت الوغود قدم،على

عتبة الباب.. يا سيدي ربي،و لا أشك أنه الممرض صاحب الجريدة ابن السي خالد الخضار الذي أقسم،بأعز ما يملك أن يقطع الطريق الصغيرة المحادية،لبابه،على أولئك الآتون من الجبال،والأدغال،والقرى.. المختصرين السبيل لكي يصلوا،بأقرب مسافة،لأول،وهلة بدأت أشعر،بعظامي تتنخر لوحدها،وقارورة التطعيم،لإنعاشي تفرغ قطراتها من فوهة مثقوبة،بحجم غرز إبرة،بذراعي،وهي تتقاطر شيئا فشيئا،لست ادري كيف عادت إلي مقولة السي هلالي؟! الخصم العنيد له العازم على إصلاح كل المجاري،بالتساوي قال واحد دمه مجرى تيهرتي حر مازال يمقت الفاطميين ما خلا شخصا من سلالة بن حوشب وهو الذي أشتد معه لأجل السواقي والطرق هشم له رأسه،بالفأس،وظل ينتحب على مقربة مني التفتوا إلي وأمره كبيرهم،بأن يكشفوا،عني الغطاء أكد الطبيب،على التقرير المفصل،منذ أن دخلت هنا،وملابسي ملقاة تحت سرتي بعضهم إن زارني أغلق خياشيمه من زكم الرائحة،لقد اتفقوا أن يحرقوا أسماله،وينقل في سرية تامة،عن ذويه لئن لا يتفوه لهم،بشيء،وقد يصبح وخيما،علينا أية هفوة،قد نرتكبها تهاونا،عن قصد أو!!!...لسبب آخر أندفع المحامي،ولحسن الحظ،بتسهيل مصرح كتابيا من سلطة قريبة من القصر سربت إليه رشوة،وبمشقة النفس فتح الموكل حقيبته الضخمة،ثم اطمأن رجال القصر،على حمله لي وثيقة،ذات صبغة رسمية..بدءوا يتناقلون،في ما بينهم اللحظة حيرة مجهولة،ثم شرع كبيرهم يدقق النظر في الختم الدائري الموقعاة به الورقة،وهم يتسللون نحوه واحدا

واحدا،غير أنهم لم يفقهوا شيئا من ما يخفيه السلطان،وهل الوثيقة تلزمه أن يقـــتحم القاعـــة،دون أن يـــدق أم لا! فلـــم أكـــن ســـاعتها أعتني،بمشكلتي،ولاشخصي،وهان أمري،أنا أتتبع الأنفاس ما قبل الأخيرة! لصاحب النظرات الشفافة،وخيالة الطاهر جاووت لم تشأ أن تفارق ذاكرتي البتة مثلي مثل جاره المخرج الجزائري كمال ذهان انتشروا الرجال الست،لمراقبة النوافذ،ثم جاءت مكالمة هاتفية من السلطنة تؤذن،بغلق جميع الأبواب الخارجية،للمستشفى،وتوقف أية زيارة لمريض ما،تقدم المحامي يندفع، بجثته النحيفة توقف،عن الكلام،ثم أضاف كنا،بصدد انتزاع هذه السرية،لئن تكون المحاكمة علنا،وبحضور الأشهاد،وأن لا نبادر بشيء،حتى تقدم لنا مصالحكم ما مغزى الأظافر المختلطة،برماد بقايا الخشب،والتي وجدت في قبضة الفخاخ لدى أحد الرعاة المستهوين،لحرفة الصيد،وحكاية البر.

- نطق المحامي العنيد:

- هو ليس مقترف الجرم،وانما الراوي الشاهد الذي في الواقع لا يؤخذبه لقد داهمته كلاب الفجر،من فوق الربوة،على حين غرة فزادت نسبة سكره في الدم،من شدة الخوف !!و بأشياء سرية أخرى أيضا!! كاد أن يبتلع معها لسانه،لذا هذيانه بقي،لشتى الآراء المغلوطة، اللبقة،وبين الأوساط الشعبية،وداخل الأسواق،وعلى مدارج شفاه الحكواتيين وأصحاب النكت،ولكن رئيس الحرس أرسل،بأن موكيلك،حسب جواسيسنا يكره

ذوينا،ورجالنا،منذ قرون،وهو لم يتغير،لا في شكله! ولا في جسمه!ولا في سماته الفتانة!والسلطان،بنفسه بدأ يتحرج منه،وما يزال ينقب عن وكيفية عودة،وسمته الأولى بجمالها هو أيضا،ويطلب من جواريه أجود مساحيق التجميل،وصباغة الشعر، لذا،فهو يستهوى،ربما مشعوذين غرباء،عن البلد،وضع يديه،على ظهره وراح يذرع الغرفة جيئة،وذهابة! ويستطرد في حديثه ربما،لأن الوضع كان يبدو له،على غير ما يرام وأن المسجي على السرة قريب،للأمرد بوحنين يمقت اللون الأحمر في الأقمشة،وهو أيضا خطأ! لان الأحمر مغزاه الدم،وأشياء يحسن أن يعبر عنها مجرد طفل يدخل فصله الدراسي،لأول مرة ضبطتني ريمو قديما ابتسم،وهو على طاولته يخط،ويرسم الأقضاب،وعلامات الأوشام،وهوالذي صور لهم الأمرد،كسرطان بحري كثير الأعضاء المتحركة فرح الأطفال،بإعلان المسابقة،ولكن لاأحد فاز بنصيب منها،لصعوبة وصف لهم شكله المتعدد الصورة،فأعتبرها المدير إهانة،وهدما للقيم رأسه صغير،كالقرد،وحدقتي عينيه،كحدقتي الصقر وان كانت حالة صحية،لسنه رغم دفاع ريمو عنه وأن يصغي لها المدير،لئن لا يطرده من المدرسة،قالت في نفسها أنت نفسك ساومتني أكثر من مرة،لما كانت امرأتك،وشيكة الوضع!ودخلت مع خديجة في هراء،ثم ختمت،بالجلسات العلنية،وكان حظك أن بعد المدوالة نطق،بالحكم،لصالحك،وأمر مستشار نائب السلطان،بتعليقه،على مداخل المدن،والمدارس وذلك ما أستغربله الحضور! بدأت حيينها الهمهمات تدب،بين مراسلي الصحف،وممرضي

المستشفيات،والتقرب من جارية،لدى السلطان قصد إعانتهم،على مظاهرة حاشدة،وبدأ لهم انه ما دخل هذا في ذاك،ثم أنطلق المحامي سيدي ما دخل هذا في ذاك،و ما دخل الألوان،في قطع القماش،والتخريط على الجدران،فلما شعر المحامي،بالخطر،والخطأ معا! أضاف على حين غرة أمامكم حضرة نائب نائب صهر السلطان،وقضية الأظافر هي تشبه أظافر جثة الأمرد بوحنين البيضاء،وهي آخر ما تبقى منها..ولكم واسع العفو!وأنزاح منتصبا،نحو،ذلك المسجي،وكأنه هو لتشابه لون بشرتهما،والملامح،والشعر المجعد الذي راح يصاب هو أيضا في الآونة الأخيرة،بالصلع ذاك صحفي،والأخر مخرج،والثالث مجرد صياد أسماك،والحيتان،وهو ضعيف البصر،وأعرج،وأصم،وكل حواسه معلولة،وله قوة التجسس،والشم،وأكتسبهما من كثرة التنصب،للأسماك،وخياشيمه تجدب عن بعد،ومن عدة أميال،شتى أنواع،الولائم من أعماق البحار.. بدأ للمحامي أن ما أنتقذه هو أيضا مجرد خيال،وموسطاش يدون،فبدأ يسرد في أشياء،غير مناسبة للغاية، وهو ذاته كم اشتكت لنا منه ريمو،ومن موسطاش؟!،وأرغمها،على إعطائه رقمها الهاتفي،ووضع لها عدة ملاحظات،بملفها،كتهديد،ولئن يعرقل لها مهامها مع رجال السلطان،لنقلها إجباريا إلى،حيث يقطن،وإلا الى الصحاري،فمرة أقسم لها،على وريقة صغيرة إن لم تمتثل لحفل مناسبة اختتام السنة،بل لرؤيتها بتلك العباءة الحمراء الجميلة المتقاطعة،مع لونها الأبيض المائل إلى اللون الزهي،إذ لا المناسبة!!،ولا اللون الأحمر!! خربش،بدخيلة نفسه ريمو أحبك!

أحبـــك!رغم بطشـــي،وأنت هزمتينـــي فـــي الشهم،والذاكرة،والشـــوارب المروعة،للبلد،بالزعيق، والسياط قدمت الكلمة،للمستشار لطم الميكروفون قليلا،وشرع في الثناء على مجهودات المربيين في تلطيف البيئة أيضا.. طوى الورقة خفية،وألقى بها،تحت الطاولات،على مقربة من كعب حذاءها،مزقت الورقة،دون أن تقرأ محتواها زمجرت،بخصلات شعرها الطويل،ثم سرعان ما احتاطت،للأمر خشية أن يقع فتاتها في أيدي الأطفال،وخطر لها،كذلك أن تغادر الحفل،وتدفع،بالكراسي،لتنزلق بأصواتها المزعجة،على الزليج،وتبصق علـى الأرض قالـت فـي نفسـها كلـب جـرب...! وقـف المـدير،وتناول الميكرفون،بالمرة نحن ضد،وضد أية لهجة أخراة،وعليكم السلام،وأبقينا لكم السلام،دوت التصفيقات،وغادر المقاعد أصحابها ألتفت ساخرا:

ـ الرب، ودين الرب يا...!! وكيفما.كان الحال إيه يا واحد (..!.) ستعرفين مصير موسطاش،وقوة نفوذه أنا،أم ديسكو فاردي،و لعن السلطان،والله من يبدع في السياسة،والسلطنة،و ريثما أنتهي من ملف البحث في قضية تمرد السجناء تعرفين موسطاش.؟!من أنا بالدرجة الأولى..فرح أطفال المدارس،لأن حتى سيمصول الفرنسي مسكين هو مجند مع كل عماله،ومكتبه،لأنقاد ساحتهم بسيدي بلعباس من وحلها ونفاياتها،وتلطيفها من بخار مصانع طويلوا السواعد بالبلد،وقد يظن نفسه في مرساي،أو باريس الأنثى،وبهاء الهواء النقي من رائحة الجثث،فضلا عن الساعات الطوارئ،عندنا،وانقطاع التيار الكهربائي،وندرة المياه،أنصت صوت أحذية ما وهي تكسر أعمدة القصب

تحت خطواتها اليوم عشية الخميس،فأي اتجاه تخوض الآن؟!! اتجاه الجبل لا سيقبضون عليك! دس عبد الحق،في جدار الكوخ أصابعه،ليخرج شمعة مدوية أحترق نصفها طوال الليلة.. مسك جلول الخبايطي الكيس،وهو على هيئة فرار، وأشار له،بأصابعه،دون كلام من هنا نسلك المحج الطيور،كانت قد أستيقظت لكنها ما تزال واجمة،في أوكارها،أنقلب جلول الخبايطي،على جانبه الأيمن وهو العامل الوفي،والقديم،لدى مسيو ديسكو فاردي أب عن جد،وحتى جده الثالث يقال أنه كان دباغا للجلود،وصباغ أحذية،لدى أحد اليهود المعروفين، بقسنطينة،يهودي قح!!وكم..كانت تعجبه صفائح يديه،وهما ملطختان،بدماء الخراف،رفقة مازره الأصفر،كل يوم سبت،أي اليوم الخاص،بمذابحه، تحرك عبد الحق،وهو يفرك عينيه؟!.

ـ من عنشر..هذايا السي جلول؟!!

ـ عنشر!!...عنشر!!...الذي يحكم هذه الجهة،أي جهة الجنوب،أم تريد ممازحتي يا عبد الحق؟ كلا،والله متى وكيف كان هذا؟؟

. رد جلول بعد أن حك أرنبة أنفه لا كلا لآ أقصد سالم ولد الحمادي العبادلي المدعو،بعنشر أيام الثورة الذي ذاع صيته،في قهر عنت القوار شرف قبيلته،ثم همس له،بادنه،لقد لفظ أنفاسه اليوم،على الساعة السادسة،والنصف مساء٢٢ أكتوبر ٢٠٠٢ بقاعة الاستعجالات،ظل أبي مسكينا مجرد جسد جلده مصلوبا،على عظامه الباردة كمكان يستهم،بعصاه،وكأنها بندقية عشارية،أو بلج،وهي متوسدة،بجانبه كم كانت الفاجعة،ونحن متسللون،من قاعة

الاستعجالات،وغطاءه،ونعليه بيدايا،وعينايا تعصران دمعا كبيرا،والإغماء يرواد أخواتي،فساعتين،ونقل على عربة عرجاء إلى مستودع حفظ الجثث لحظتها ضج العالم،وكثر العويل،والصخب،حوله قيل أنه،كان يحمل بطنة جمل،وآخر قال أنه،كان يركع الجمل الصائن،بزبده المرغي المهم أنه حمى المدينة من الغـــزاة آه!!...الـــذين تهاطلوا،كالنمـــل،على جبـــل بشـــار،والعبادلة، وزوزفانة...!وأخيرا،وجدوا برنوسه المهتري ساقطا،تحت سرته،وعيناه تحلقان فـي ذويه!ومجاهـدان علـى شـاكلة اخـرى كـان بجانبـه يتبـادلان النظـرات السريعة،ويتحسسا في اللحظة،بطاقتهما المشمعتين من داخل جيوب برانسهم النظيفـة إحـداهما قيـل أنـه ذبـح عائلـة ثوريـة،بكاملها..كانت تمـد المعونة،للفلاقة،وآخر حز رقبة أخاه سرا،والضابط الفرنسي موريس يدس في جيبه فرنكات فرنسية قل ما دخلي أنا في كل هذا ما سردته،بنفسك يا السي جلول؟! قر وقل غير الصح أنت تعرف جيدا عنشر الزوابري،في الشمال،أم الجنوب لا...!والله يعلم،بالباطن يا خويا،وهذا مجرد ظن شيطاني منك!!

ـ أ تريد أن تنظم،إليهم؟؟؟

ـ ليس لي معهم بطاقة انخراط ؟؟أتراهم،يملكون هذه الجهة؟؟؟

لماذا تصر على مثل هذه الأسئلة أنت خائف إذن؟؟؟

ـ اضطرب وجهه،كالبرتقالة،ورد غاضبا أني مشوش ليلة إلقائهم القبض،على بلغوث،وفجأة توقف عبد الحق محلقا،في الشمس في أي يوم نحن،و في أي قرن يكون هذا؟

ـ رد عليه،والله ما عدت أفرق،إلا بين الليل،والنهار؟! لا تخشى شيئا يا صديقي سأقول لك أين نحن الآن!وأتجه يستبرى خلف جذع شجرة دردارة،ويتطهر بصخرة لانعدام،ولو قطرة ماء!رد بالك تقذف بها،على الباب !... يا ولد الحرامي،إيه الزوفري مسكين..يريد أن ينظف كل فضلات الحيوانات،وخصوصا فضلات حمير،وبغال القرى النائية،والذين لاحرج عليهم،وفي عرفهم إن اقتحموا بها طرق المدينة المعبدة،ثم خرج لما،وصله لغطنا وأعاد يتوعد ضدنا!!وهذا الوجه نطلق،عليك الكلبة...أبتعد يا واحد!! ويده تدور،بعصاه،وتدور،ونحن قردة تداعب أسد هرم،في مملكته..كان الزوفري كلما أقتحم غرفته يجد ساحتها ملأ، بالصخور،والنعال المتشرذمة،قارورات وجعات الخبايطية متهشمة،على بابه مع علب السردين الفارغة،وركام الخبز اليابس،وبين لحظة،وأخرى يحمل الصخور، بيده،فيلقي ما كان بيده،وهو يتربب،ويدور،في مكانه الدائري حاملا منجلا طويلا صدئا،لكن علال البقال،برجله القصيرة يقبض،على كتفه من الخلف،ويفتك منه المنجل مهدئا،من روعه،أنهم صبية يازفري،وأمر مثل هذا،لا يتركك تركب حماقتك،وتقذف لهم كرتهم،لئن تلتصق،بشوك الهندية!لقد فشت رويدا رويدا،وأمهاتهم من على السطوح القرميدية المغطاة،بالزنك يصلونك،بالشتم،والعيار تذكرته جيدا،وهو يخفف،عليه،وطئته،ويهزون من حديثك عن قصاصات الصحف،وأنا أبكي،وأتمنى أن لا يفصلوا رأس سلحفاتي! بعد أن سرقها،ولد خضرة العباسية تمنيت أن أجدها حية،أو قد

أنتحر،على حبال السفينة الخربة المتهالكة،على جانب الشط!...أندثر،وأكون قد أخفيت عنها سر فكرة الورق المقوى،وما تبقى منه نهش به على بقية الجثث من زحمة الذباب عليها،وأكف الدردشة،عن الزوفري،وأشيائه رغم إعجابي،بشخصيته المتبركة،وزيارته،لسيدي ابن بوزيان كل صباح جمعة تقربا له،لئن لا يغضب على أحد،وعلى زائرته المشتاق،إليها،منذ رحيلها إلى هناك،لدراسة الطب والتمتع بكتابة الرواية تعود بعض المرات ولا تتبرك له،وعليه أما أهل المدينة،و بعد أن وجهوا إلى أخي تهمة تصوير الملك وهو خلف جاريته،والي تهمة السر وإغراق السفينة حيينها تحنطت لهما فلما تجاوزا بي الرصيف..منهك القوى،بعد مرور،على تكتيفي نصف ساعة اللعين تفقد شيأ مهما هو أن يمزقوا كل الأوراق المتواجدة،بسرتي الملقاة،لدى السلطان،لقد أمطروني شتما،وسبابا،ويده تلف الحبل،على ساعده،وأدور معه كالشاة،أو الطاحونة،وسطهم الركلة على مؤخرتي،والبصاق يسقي مسماتي العطشى،فأخاله ماء يود التسلل،نحو لساني،أيظن أننا كنا متغافلين عن ما يجرى،بالبلد،وأروقة المستشفى،مع الممرضات،حيث رائحة الدواء،والضمادات المبللة بالدماء الثقيلة،والأحذية،أطراف اللحم المرمية على الزليج،من كثرة الحوادث،بالمدن الكبرى،وغيرها.

ــ فيرد...أحدهم،والملاقط،والكلاليب الكهربائية تتدلى من بين يديه المغلفتين،بالقفازة.

ـ أجل انه يملك بقية الأسرار ؟؟؟

ـ... .... ؟

ـ أندفن كبير أنابيب الآلة الجساسة،لمعرفة نوعية هذه البقية من الأسرار،وما فرط من فاه السلطان،كزلة لسان؟وأنا متهم،بتشبيه عبيدهم ونياشييهم،و أبناءهم،على زنك بيوت القصدير،بواسطة قطعة فحم! كنا نقلد،ونكرر بها مختلف الأوشام، رسم فريد من نوعه حقا حيوان يشبه حيوان الخلد حجم،مثل القط ،وشكله مثل الفأر!! صورة جميلة،وأنا أدخل فصلي الدراسي الثالث،ذات شتاء بارد وممطر جدا!...لقد تهوست بها ذاكرتي،وندى حبرها،على الطاولة مازال عالق، بمسمات أطراف أصابعي الطرية،حتى لأنه غرر بي،لئن اكشفها لهم،مع ألوان لوحتي،في يوم ما.

ـ كما ترى سيدي ؟؟! ورئيس الاستنطاق أمرنا،بعدها أن نصب،عليه الزيت المحروق المفحم لأطماس،حتى هوية بشرته آهاه...! يا خويا!الرأي ما قالته جارية السلطان،وهي تتعثر في قماشها الفاخر،وخرجت به السلطانة بكاملها،بما فيهم ضابط الخفارة العاشرة.. ولكن نخشى!...و أتريدون بنا الدخول في حرب قوامها الدم،والحرق من قبل رجال مقدونيا مصر،وهم في دفاع مستميت عن رمزهم،ذي القرنين ونهرهم وعن فراعنة السودان السود سينكاميسكين، واسبيلينا؟!!،فبعد أن بدأت دبدبة النمل تدب،بين خلايا شعري الملطخ،حملوني مباشرة إلى زنزانة القصر، وأولئك هم،بالذات الذين تحسستوا ألوانهم،وزمنهم،وحمرة وجوههم،كمسيو ديسكو فاردي، رغم أني

لـــم أراهم، كعقـــارب الســـاعة المتعطلـــة الطنين،ولـــو عـــرف مهـــارتي فـــي العد،والحساب كالنحل،لما تعجب من معرفته،لموريس أودان وغيرهم.

ا لفصل الثالث

(٣

أخترق طنينه طبلة أدني،وما أن تقترب،حتى تشعر،بجاذبية المادة اللزجة المطلية،على شبه جثة ممتدة داخل نفسها.خلية نحلي هذه الأيام استولت عليها ديدان سوداء،وصفراء،وشبه حمراء غريبة الحركة،والمنظر هي، لم تنجو إلا ملكتها التي بقيت معلقة وخدمتها على سقف القفص لإحساسها بالصوت الغريب،وحتى الكلاب لم تعد تعوي بل،وصدت بعيدة، مملوءة الأفواه دماء كالحناء،وظلت هي الأخرى تراقب،ذلك المشهد المضحك المتفجر،بجسد واحد ومائة وجه في كل ثانية،وتبصبص بطريقة غريبة ومجهولة، زلزالا ما،قد يحدث هذه الأيام هو نذر،للكلاب،والحيات الزاحفة وحدها!!أو لعلها هذه المرة سبقت إحساسها،وصخورا صغيرة بدأت ترطمني من على جدار المدينة،والذباب يلتصق على المادة الواحدة،تلو الأخرى!... وقدمي المتعفنة،بالنزيف مآلها البتر لا محالة!!أو أن تستبدل،بأخرى اصطناعية؟!وأتأخر ساعة قدوم السفينة.

آه...؟!! عضيت على شفتي، ونحن نفاجأ،بفوهة البندقية تلازم، صدورنا تماما..وخادم الملك يطل علينا بخوذته من على رؤوسنا مكانكما يا امرأة! فتنتابني علامات الخوف،والدمار،وعليه،نبتلع ريقنا،مثل الدجاجة،ونتكئ على أشياء مريضة،الجوع يتوزع بقاعات السجن مع الزعيق،والقذف،بالأوان،فمن ألقى،بهمسة التمرد في تلك المساءات الباردة من المدن إلى بقية القرى الأخرى الغامقة؟!! قيل أن زنزانة غريبة بالمدينة،هي السبب في إيصال حروف التمرد أي...! لا...! أبتعد عني...! حذروه بقية المساجين من خطورة الأمر،وبسهولة خارقة بدوا يدفنون خناجرهم،على بطوننا،ولما تفتح عينيك تجد نفسك تتخبط،على باب من خشب،وفي عري مضحك للغاية!إلا من يديك اللتان تستر بها عورتك،ومن احفاظ سر يخصك أنت جدا.فتحت عيني السليمة،بعض الشيء،وارتميت صوب شجرة التوت،ونخلة متعرشة.. صوت الرجل،وهو يصرخ،ويشق السماء بأعلى صوته،وهو يقفز ويقول من أعجب الأمور أن تجتمع نخلة وشجرة!!وعلى استفاقتك،مع بداية هبوب الرياح الشمالية المقنعة،بنسائم البحر،ورماله تنهض على سفن مبعثرة الألواح،ومجاديف في الأرض مع زمرة من الأحذية الممزقة،والملاحيف مملوءة بالتراب،وما شد انهاشه السحري هو أثر طعام الأمرد،والنخلة التي باتت في ميلان واحد،لتعانق الشجرة،وتستلذ طعم التوت،حتى لا تموت جوعا من شدة الحر،أو قد تمارس هي الأخرى عملية انتحارية،كسمير عزيزة؟!! خفت بشبشتهما،والرجل يطمع في كل شيء،عبر المكان الضيق أنسحب

عصام،وهمس لنائب السلطان وجهه،كالطمطم أرتعش أحدهم،ثم ما لبث أن قال عصام كيف أن يستفحلون علينا،بتمردهم،وهم وراء القضبان؟؟؟؟ أذهب،وستعرف!!... فبعد أشهر استطالت رقبة عصام،وفهم كل شيء،والنائب كان ما يزال يرتب المسائل في عقله،بدقة رغم التشويهات التي وجدت على باب السلطان،بواسطة قطع حديدية حادة،أو مسامير! وأثار طفيفة جدا،لصخيرات يبدو أنها،كانت تحاول التمرن في رشق تمثال النسرالمثبت،على سطح القصر،وأن يومئ لك الحراس،بالسكوت وعدم تداولها،حتى لاتعلم أدن السلطان،وذويه ليلة باردة..كانت،وتارة يرد،عليه،وثارة يشرد في غفوة،غير بعيدة،من رأسه المطلوب،بألف دينار وألف دولار لحظتها يقفز من حوليه،ويغدو يشك في أي نملة تتحرك بجانبه أو رقصة نحلة طربا للغداء! يتمرد أبدا،عند رحيل الشمس يشعل سيجارة،ويمرغ قدميه،في بركة من الوحل النتن،وعصا قصب خاوية يحرك بها،ذلك الماء الثقيل العفن عله يعثر على بقايا عظام سمك لاقتفاء أثره! تسمر،وقال لحقيقو أنتظر ماذا سيفعل،بعد إكتضاض زنزانته،بالمساجين؟!! رد عليه،حقيقو،بفكه الفارغ،دون أن يكلف نفسه،وهو يعلم ماذا فعل أيام الرباعية،والعيون المعصبة،وأقدامه الآن تقطر بأشياء!!...أخرى كم ضرب كفا،بأخر،وأردف الدنيا بنت الكلب!لاتخطيء أبدا في هؤلاء...،موسطاش الخنزير!!وعقب مسدسه،وماذا فعل في هؤلاء؟؟؟وبغثه هبت رياح موسمية،عنيفة تشيء،بدخول الفصل،وانتهاءه من فعلته المخدشة،للحياء من تحت شجرة التوت،لأفراغ

حرمانه تجاه ريمو،وشعرها المربوط،كذيل الخيل الراكضة ،وهو يتخيل كامل جسدها البض،وأخرى يتأسف على عدم وصوله،لمغزى ولد بوعلام الطحان التي آنفت البيوت القصديرية أن تئن تحت مواسمه الحزينة،وما باتت تخرب،سوى المتلاشية الجذور تلك المترامية،بالقرى بغته،كالعلب المطاطية الفارغة المتعرضة ليلا، للعواصف،والنهب،وحزات السكين!...ليلة باردة كلا!!...يا وليدي!!...نم حتى يأتي باباك ثم!!...وخضخضها من جديد منبها حاستها أمي...! هذه كلبة القيرع الزوفري راها تنبح على الخبايطية،فترد علي هي مسكينة،بقامتها المديدة،ووجهها الأسمر الجميل أرقد يا ولدي الله يعملها تنبح على مولاها!...وعلى اللي رباها،ثم أهمس،على أدنها،لفطنة ذكائي،أمي لقرع الزوفري زوجته هي فارعة الجنية،اختطفها،من خلف زوجها هدهاد بن شرحبيل اليمني،وهو في شجار كلام،مع نفر من الجن،على غلام اسود فر منهم هذا ما قال لنا،ولد أحمد العطار،وبوعمامة ابن حمدونة الكحلة. كنا،ونحن صغار نمدد رؤوسنا،على عتبة بابه لإرهاف سمعنا،ويخال لنا..أننا نسمع،أصوات غريبة،وانتحاب يشبه بكاء الوحشة في ليلة صلاة القدر،ونحن،على بابه،وأركان غرفته المسكونة،تردد صدى صغاره:

ـ كلا ...! ليس!...تماما يا أمي،ولماذا لا يلعبون،في الحي مثلنا ياك باباهم!هو نفسه الزوفري؟! ولما كبرت علمت أنه يكره موسطاش!!! صاحب الصدر القفصي العريض الموشوم،عليه الصقر المحلق حدود ابطيه الفائحتان، بالزغب الأصفر،لا احبه!أنا،كذلك،لأنه قهر معلمتنا ريمو

أمامنا..عدت،وأنبزغ الفجر،ثم نهضت من تحت شجرة التوت،بعد أن طهرت نفسي،من النجاسة..رأيته شبه أمرد وهو يبتعد،ويده،على أنفه،وفمه،ويدفع،بالحطب،والأوراق، ويزيد لهيب النار! لئن تضاعف من اشتعالها،كعجوز تريد طهي طعام صغارها حظه أن يشبه نفسه بالفأر،وهو يزرع مرض الوباء،والخراب،ولا يندم ارتخت عضلات،وجهه من هذا الخزي،ومن عدم تصفح أهل الحي للكتب،وحفظهم للأشعار وتأخره في الزواج..دس رأسه،بين ركبتيه، وأخذ يبكي! ويبكي! رغم شيخوخته،وعمامته ولحيته الشهباء،لرعايته طوال قرنه للسلطان،و ذويه.أسند رأسه،على جدار المدينة السابعة وراح يزداد في الشهيق،بصوت مرتفع،كمن فقد ابنه،لما تذكر محنة ابن حنبل وهو يعذب على الشوك، وبن رشد،والتوحيدي، الذي أضرم،منذ يوم واحد فقط النار!على كتبه بحطب الصبار، والسدر، والطلح، وما لبث أن اتسعت عيناه، لما،عبر في قلبه سيفا،كالشهاب ورائحة حجاجية منتصبة لهم،وعليهم،وهو يمني نفسه،كالمخرج أن لا يرفرف روح بن الزوبير،من بين كتفيه،ولو لمجرد اللعبة، أوسفك دم العجمي الذي أخلط حروفا القرأن،أو يمنع من يكلمهم من الرعية ولايرد عليهم،حتى التحية! ليدفعهم،إلى الانتحار لوحدهم،وبمحظ إرادتهم وسط المدينة،حظك يا شاب!! انهم ألقوا عليك القبض ولا تسكن جسور قسنطينة، بسيدي راشد جسر الموت،والانتحار من أعالي الهواء،وتلتحق بغسان كنفاني،وسمير عزيزة هذه الزنزانة حمت لك زفير جسدك من هؤلاء القوم وشرفك أن سجن بها،حتى العربي بن مهيدي قبيل

اقتلاع جلدة رأسه،وحشو قضيب من الحديد بفمه ساخنا رأس أخاك من الأم شجع وهو مطلوب بألف دينار ودولار،والسيف مسلول عليك أنت!! كذلك،تلمع عليه ألوان قزحية،في ضؤ الشمس،ويتبعوك ذئاب الجبل يا شاب! وأنت! تدوس أحلامك،بآلامك تطوعت في عملية،أصبحت فيها مدان بالفعل،كيف ما تناولت مجالس السلطان الأمرد بوحنين؟!بحيث آذانت مطرقته في غيابه هو،وأنزلوا العذاب على بلغوث، فان الأمر يعدو في نظر الجارية مجرد لعبة حمقاء،من رجال السلطان،رأسك مطلوب،كالقذيفة تحمله مدافعهم صاروخا،لبراري السودان،وإيران،وقندهار،من الفجر حتى العشاء،ولا زمن محدد أينما،وجدت أنت مدان على جريمتك،وفكرتك التي زرعتها والإقدام،على حرق الأشجار القوية الرائحة بما فيها رحيق النحل وأقراص العسل والأزهار الباصقة،لإيقاظ،لهم حنين الصبي المعلق،على الشجرة،وحاسة تشممهم من بين كل هذه الأشجار!! لا أحد نكر الرقص،والغناء،بديار السلطان ولاأحد ينقذك أيضا،وأنت تقاد،للمحرقة تقول هذا قد يحدث بين اليقضة والنوم! لكن يحدث أيها الوغد،واسمك يتلألأ على سجادة معزة،وجهك يطل منه شبح الخزي أنطق انه نائم،في أبدية السكون،لكن الأمرد،أم الزوفري،من روى الحادثة الخرافية الوجه،والجسد الواحد بالملامح المائة؟؟! البصري مداح البركة،وبائع البخور المملحة،قد أنهك عظام كتفيه حديدها،وهي تهتز،بسلاسل ميزانه الطويلتين حد ركبتيه،ولم يعد يفرق،بين نكثة السلطان،وأسطورة الملك،و عن الذي يبحث عنه رجال السلطان،من

قريـة لأخـرى ومـن ليلـة،لأخرى،ومن زقـاق لآخر..ليلـة الجمعـة فقـط، مـر خيـال،على حقيقو،ألتفـت مذعورا،شـك فـي كـل شـيء أعـاد النظر،وكأنـه لا يصـدق مـا يـرى!! أعتـرض كـل الطـرق،لكن لقـرع الزوفـري وأخيه،والكلبـة السوداء التي أحرقت،بأمر من شخص هو الآن نادم،على ما بدر منه انتقاما فـي ليـالي الطـوارئ،على المدينـة!!بحيث أفضـحت،بنباحها أمرهم..فأيقضـت رجال السلطان،فوجدوا قامة في شكل جسد فارغ من أحشاءه منتصبة على عمود كهربائي من الأسمنت الخرساني..أخذوا قطعة منها،بواسطة ناقلة خاصة مجهرية،فوقفوا على ورقة صغيرة مكتوب عليها بيضة توأم أخرى...! و رائحة لالة شافية،ونذرها بعودة الكل إلى ديارهم،بما فيهم البحارة،والبحار الصوفي الـذي كثيـرا مـا تسـري يـده،وهي تـرتعش رغمـا عنه،بشـحنة عصـبية خاصـة،لما يلتصـق شصه،بسـمكة مـا أو أيـة وليمـة،ولو بعـد قـرن مـن الزمن،بصـق عائـد منهم،على يمينه،وشماله،وحمدلة لله في عدم إقدامه على حرق قبة،وضريح لالة شافية،استقبلني الرجل الأول في السلطنة،اعتقدت بادي الأمر،أنها مجرد خدعـة لكننـي أهـو حـي،أم ميـت؟! يـا سـبحان الله مازلـت أمقـت موسطاش،بفسـتانه الأحمـر ورجالـه أنهـار نائـب الرجـل الأول،والزمنـي علـى مواصـلة الصـمت،وكثمان أسـراري أجـل أعرفـه جيدا،ومنـذ عشـر سـنين كاملـة شـارك ضـدي فـي اشـتباك عـويص، ورجـالي خلفـي تقـدمت إليـه تلمـس مسدسه،وبغثه صوبت،نحوه سيفا صغيرا،بحجم السكين أفقدته أصبعه الأيمن! انسـحبت،ومع ذلك فلم أشأ أن أواصل قتله،وبعد أربع سنوات كاملة،وجدته

يقدم تحية،على بلاط المستشفى،بالرجل اليسرى مخالفا تقاليد التحية،وقائده منتصب أمامه لم يستطيع تمالك النائب نفسه غمزه،بطرف عينه،لكن السلطان أبتسم متجاهلا الخطأ أشمئز النائب،وقى الله السلطان فعلت حسن،ولاتخف شفاءك مع صهر أطبائي،عليك..دخل الرواق نائب السلطان،والممرضات يخلون له الطريق،وبيده آلة صغيرة شديدة السواد،كأنه،وكأنما يتحدث معها!...أو عبرها،لشخص آخر بعيد عنه!...و ثم وبعد فكروا جيدا،وأنه يصرح ليس بأخيه،وكل هذه الأشياء مجرد بهلوانيات،والذي صبوا على جلده الزيت المحروق ليس هو،على الإطلاق!! فموسطاش بعث برقية اعتذار يقول فيها أرجو أن تسامحوني أنا كذلك أخي ليس،بيدي،لئن أستدرجه لقد فر غاضبا!على ما كان يرى،وتعرض للإهانة،دون علمه والسلطان،بذلك كانت نيته في البدء أن يصلح من خشب السفينة،ويلونها بلون محبب لدى جاريته،وفرشاة ابنه،ولكن الفار ليس هوالأمرد!ويعتقدون..هم!! هو الأمرد بوحنين صاحب اللحية الكثة،والرأس الأفطس الغريب عصره،أهو روح خفيفة متنقلة،من صخرة سيزيف لأخرى،وقد تردم هذه الصخور المدينة في يوم ما من البوادي وقراها إلى باقي،المدن رويدا رويدا!فالأمرد،بنفسه..كان ما يزال مجرد شبه جنين معلق،على سدرة خاصة داخل قطعة قماش متناسلة الخيوط،معها رماد من الأعشاب والبخور،والأدوية التقليدية المسودة دخانا..قيل أنه حضر معهم لما،اختلفوا،إلى حد الاشتباك،بواسطة الأسلحة المقطوعة المصورة،والخناجر

حول بقاء المدينة،وفرسان الملك المتمضمضين ببول جاريته،أم نندر،برحيلها الأبدي،وبعد سبعة أيام من السبع السنوات الأولى..أقدموا حراس السلطان،بعد سيرهم الطويل،على الأقدام على حية شبيهة تماما..بما وصفوا به الأمرد بوحنين النائم في سباته الطويل،وبقاء المدينة مرهون بتشييد مشروع الجسر الذي يربط المدينة مع القرية،وأخرى بأخرى،ولو كانت مجرد كومة رملية وهم كلهم بما فيهم الخفارة العليا استسهلوا عملية تطويق أولئك الذين صرخوا،ومزقوا ملابسهم،على رؤوسهم الندبة،ودخان عجلات الشاحنات التي أضرموا فيها النار على قارعة الطريق..ربما جنون سيكون كارثة قرن مشكوك،حتى في أحلام جيله جراء مضايقة رجاله سبيل دومري الحي المجروح المشاعر،منذ ليلة الأمس..المهم أنها تقف على البحر! ولو في ظلامها الدامس اعترفت الطامة أنها جحر من جحور السلطان أحيانا الواقعة،تحت جدران قصره حسب عرافه!! دارت حول نفسها،لما أقلبتها فرس السلطنة،وهي تبحلق بعيونها،وأسمالها الوسخة،على قارعة المدينة قيل أن الدورة المخروطية،حول نفسها شارة على اعترافها،بالذنب تجاه السفينة التلفة الحبال،والمهشمة القطع،وعليه ظلت تزحف،وتنسحب لوحدها تجاه جحر أحد الجرذان.. شعرت،بالخطر النسبي،ثم سرعان ما،غيرت طريقها،نحو سبل أخرى خارج البناية فرح..الأطفال،وراحوا يرشقونها،بالحجارة،والنعل،وكأنهم في مغامرة شائقة.. توقف دفعة واحدة القيرع الزوفري عن شروده أغلقت الكناسة أنفها من زكم رائحتي النتنة،راحت

تنظف،وتنشف أسفل سرتي،وتلقي،بملابسي التي كانت ما تزال تحتفظ،بأثر مدادي في سلة كبيرة الحجم نوعا ما لحرقها في ما بعد..بحمض والماء المقطر معه، تخاطر لي في هذه اللحظة.،وعلى حين غرة،وهو أمامي،بنفسه،تقدم،نحو شباك الزنزانة،وهو يردد ما يحبها لاربي،ولاعبده! تنهد السجين وهو مسند اليدين على قطبان حديدية باردة،كجسر سيدي راشد،والسجان القبائلي يقهقه،من اسم بلغوث كاه...! كاه...! كاه...!سيتبول،عليكم مسيو ديسكو فاردي واحدا واحدا،وثلاث مرات،وأغرب ما سمعت في حياتي.. كاهْ...! كاهْ...! كاهْ...! قل لسيدك،عبد النور الواكدي ينقذك،وسيد أختك المتضرعة له،لأجل الزواج، وراهو رموا!!..اليماك سيدها.بومدين الأنصاري...قلت في نفسي وأضفت،فلن تستطيع الخيول الأسبانية محي آثاره،وأقمشته البيضاء ليلة الهجوم على ٢٧٥ مهاجرا أغلبهم من جلدتنا،طوى شفته...آخر كان هو أيضا يدقق التمعن في ملامحي لا أعرفه من أين جيء به؟!..وهو ليس من حراس الزنزانة قال لي،سيدك ولد باشبلية،وضايقهم المنصور المحدي،بمدين، بجاية أنا من المحدين،وجدي الأول المنصور،حسب بطون المجلدات،لكن مسكين سيدي بومدين ٢٠ سنة من الحنين وأخيرا مات بتلمسان،نطق القبائلي كما يمكن لنا ردمك بهذه الزنزانة ولا أحد يعلم لا تخف لامني! ولا من السلطان! في الليلة المواتية جاءني؟لربما تكون تعرف ملامحه أسموه رفاقه بلال..لسمرته لكزني سجين كان يقاسمني المكان،بأن لا أكثر معهم

الحديث،ثم خال نفسه معهم إلى حد الآن، وهو متكوش كالقنفذ،تحت أكياس من جلد الماعز وهي معلقة،بمعسكره خصيصا،لتخزين المياه وحليب الماشية والبقر،ثم أضافوا له ألقي،عليه القبض باردا أعزل السلاح شخص طويل القامة..تدحرج،بجانبه آخر من نفس الحي الذي يقطن به لقرع الزوفري والشاعر الذي حزوا رأسه بواسطة سكينة كبيرة،لقوله الشعر،بين الفتيات،رغم أنه درس معه على طاولة واحدة، فلما أحس بأن الأشياء الجميلة تهرب،منه سب زميله،وكفر ببركة سيدي عبد النور! سقط الشاب،وبجيبه ورقة خط،عليها حبيبتي آمال الصحراوية التي لم تتزوج بعد لأجلي،وهي على مشارف خمسين سنة بشرتها سوداء،كالليل! كل عشيرتي خاصموني للونها،ومن بينهم مثقفي العشيرة أيضا،وكبراء شيوخ قبيلتي سمحة،وتدينا الذين يكرهون،ديسكو فاردي،لا لشيء إلا لجنسيته اليهودية،ولما أشيع،بوفاتي استحمت عارية على ضريح بن يحي زكريا الزواوي!وأكد طفلها أن جهة الجنوب المعاكسة، للشمال يعرفها جيدا،ويعرف،الذين قتلوا أمه!!فمن الصعب اقتحامها،قام يترنح،ببطء القائد،وعاد،بمخطط مرسوم،على جلد معزة تطاير الفرح،من عيني الرجل انحنى،الشاب ببطء الغلام،وهمس له..لولا سمرتك السوداء الساذجة كزيد بن حارثة لأعطيتك ابنتي،و أنا لوكنت غبيا أو نبيا ينقصة حدق الألوان لمنحتك هذه الجهة،واليتمرد،عليك من يشاء من القادة؟!،فأنت له،بالمرصاد زاد الشاب من حماسه،وهو يواصل في شرح الأرض،وخباياها،ويتذكر،بين الفينة،والأخرى خيانة بن خلدون للعرب مع تيرمورلنك،!!أعوج لسانه،وبصق

في وجهه الرجل خفية،عن الأمير ونوابه،وزجره بعنف واش بيك! تتردد،وتخفي الجانب السفلي،للمخطط؟! ذكرت أولاد سيد الشيخ وأنت لاتفرق حتى بين المجادبة،وحميان،وأولاد زياد..أوه!! لكنتك غامضة بزاف أسمح لبلال يتكلف،بهذا،فبعد شهر مات بلال غيضا،على سيدي عبد النور،والشيخ بن بوزيان،وسيدي بوسماحة!!!!،وفجأة تهالك على الأرض نائب القائد..ناوله خدم الأمير الجلد..أخذ يتأمله،والضجيج يتعالى من داخله،وقف يخطو نحو الأمير وهو يقترح عليه أمر توحيد اللهجات،لربما تحل مشكلة المناطق الصعبة الاقتحام،تشابكت مشاعره مع أفكاره في هذه اللحظة بالذات،وهو يفكر في سر ما تفوه به السلطان لرجاله خفية عن جدران قصره...بند عريض،وجدته في طرف جريدة..كنت ألف،عليها مسدسي،وبضعة..خراطيش..أقتحم الخيمة قائد الجند،راكلا بحذاءه رأساً هزيلاً لشخص اعتقدوا،أنه مذيع أخبارهم هكذا يا خويا الزوفري! وهكذا يا خويا إسماعيل!رأسك رميته للكلاب ...وأنا وهو يعلن،بداخله عكس ما يفعل..ذلك ما تركه لنا السلف يا خويا بوبكر! قضيتك ليست،منا،ومنك،ووضعله فوهته،بفمك، نسي الأمير الرعية، وغذيت،لوحدي في حالة خاصة،وبيني،وبينك سنين يا فاطمة الندم،والحرقة وابنتي الشقراء تشهق علي كل ليلة،ألف مرة،عند نزولي ماذا أفعل؟ تفكرين،بدقة في حبال السفينة،علها تعود إلى مراسيها وأعود،عليها أقبلك بشوق الحرمان،وتجدين مجوهرتوك الضائعة! يتمدد الذكر،نحو أحشائي،وأنا أصرخ من لذته

الخشنة..مابك يا فاطمة! أرجوك لا تقلقي مزاجي انصرفي،اتركي باب الغرفة يعود،لوحده الهوينا،وبهدوء،وحلمي الوحيد أن أحرق الزوفري،وأبول على مجلدات المسعودى تذكر يا واحد الوقح!! يا المسعودى!! أن لون الحقيقة بعدك،بألوانها الطيفية السبعة،ظلت صغيرة،وهزيلة هزيلة جدا،وعمامتك الصفراء المزندقة اللون رشت يدك مدادك على ورق باهت وحائل جدا في مجرد مسرحيات زائفة تافه..عن الخلائق،وحول المدن الزجاجية والتي بحثوا عنها الأطفال طويلا..وسط ساحات مدارسهم وأحياءهم،فلم يجدوا منها بدا والأزمان،وزندقتك لمعاوية،وتكفيره كاهْ!! كاهْ!! كاهْ!! الأمرد بوحنين يكتر من القهقهة،عليك لما سمع،بمدنك الزجاجية وبنسب المتنبي وبقيادة التوحيدي لجماعة المتسوليين بني ساسان ولعقدة نسبه هو أيضاً..كان طنين الذباب،لوحده يسمع من خارج الخيمة،وهو يحوم على عفونة رأس بوبكر،ثم سرعان ما يعود إلى قمامات المدينة،ثم يعود إلى أعالي الجبال ينتقل،بين ثلاثة أماكن،كأنه هو أيضا لم يفهم لغة بعضه،أعاد الكرة أكثر من ألف مرة من الجبل إلى قمامات المدن،وأخيرا أستقر نصفه،على قمامات المدينة،والآخر على قمامات مسيو ديسكو فاردي،والسفينة المحطمة بدمائها العفنة،والجثث الكبيرة،والنصف الباقي ظل يحط على حاشية الخيام أبتلع الأمير قرصا منشطا للأعصاب،وتسلم الصحيفة.. رسالة،تشعره،بانطلاق حافلة الشمال متجهة نحو الغرب ولج بينهم قناص مثقل،بالأموات ...!يتلوى من شدة الأقراص،وبيده ساطور يلوح فوق عمامته،ويصرخ بقوته الفضيعة..! بلغوت

يقتل قتلة غبية.. سأحز لسانه!! والأخر يده البضة الشبيهة،بيد الأنثى!! وأحرق كل ما كتب عنا من الصحفي،وفنانه التشكيلي يده تحز !!إن اليوم وان غدا!! القيرع الزوفري رأسه يسقط أمر ما فيهش اثنين!! مثل الكرة التي قذفها لنا على شوك الهندية!لم أباشر بعد في حرق الجرائد المغرضة،وأنا أتشمم رائحة الورق المحروق تملأ خياشمي من زاوية يقطن بها أبا حيان التوحيدي،وهو يخطو خطاه،لملامسة صخرة ثقب الكبريتة،مرة ثانية،ويعمد على تكسير قلمه،والى الأبد، وحروفه بدأت تنكمش على ذاكرة من رماد وهو يتأمل ذلك المشهد المروع!! أبتعد الزوفري،وظل يتابع الظاهرة،وأحيانا يتكدر،ويبصق على يسراه،ومتيقن أنه ما يبقى منها،سوى تلك المسامير الضخمة..تمنى في الحقيقة التوحيدي الزنديق لو يكون في حياته إلا ربع ساعة يعيش فيها ككيميائي عكس شركاءه في الزندقة والفلسفة أبي العلاء المعري وابن الرواندي،للكشف عن تفاعل هذه المواد،وبهذه السرعة الفائقة النار تلتهم الكتابة ماخلا نجوة الرسالة التى د مجها خصيصة للقاضي أبوسهل علي بن محمد! وصدره مع الشيخوخة يكاد يختنق كالفأر في جحره مع أنه لم يصادف ذهليز طريقه وشمعته بيده النبي الخضير البتة لم يلتقيه أويخطر بباله كبقية الصوفيين ولو على عجل من أمره وهو يتأهب لإخبار وزيره في صبيحة شتوية،أو صيفية لا أذكر بالضبط من ٦ ٠أكتوبر من أيام السنة،وبعد أن توقفت النيران،اكتضض المستشفى بالمنكوبين،والمرضى،وحريق المدينة وقف على نافذتي صوت يتأبط نكهة فريدة ويتشدق بلكنة بدوية،بين

الصحراوية،والشمالية،والغربية للبلاد في البدء، لم أكن أميزه..اعتقدت أنه مجرد ممرض أحمق أو شاهد يحاول التأكد من ملامحي هل أنا كاليدوني أسترالي أم ألماني،أم جزائري قح تغطي قسماته ظلال القضبان الصدئة كان من قبل يتردد على خمارة مسيو بياريديسكو فاردي، بعد أن وصفوني له،أم هذا موسطاش الذي اسمه الحقيقي عبد العالي،وهو أشد ما يكره من يناديه،ولو خطأ به،لجماله الفتي..رغم تقدم سنه،ثم سرعان ما أحسست،بتضاعف العدد،وأن آخرين يشاطرونه حديث قضية تخريب ضريح سيدي بومدين الأشبيلي الأندلسي،وتذمر العذارى من المخربين..تراجعت إلى الوراء، ببطء ثقيلا لما انكسرت أشعة الشمس السبع متوغلة،على وجهي،ودبوسة قارورة الإنعاش منغرزة،بذراعي اليمنى اكتفيت،بالحركة في مكاني بطيئا حتى لا يشعرون،باستفاقتي إنه القيرع الزوفري المحكوك اللحية..من أتى به هنا، وهو يتأبط عباءته،بكل حنينها،تحت ذراعه،كأنه يود القفز،على برك الماء الأسنة،لكن ليس كما ألفته،بهيئته،وعضلاته المفتولة سنين مضت لم..أراه؟ وهو يدير مفتاح بابه الخشبي الذي ورثه عن أجداده،الساقطين،على مقربة من خراطة،قسنطينة،و بونة من منا غاب؟؟؟ أم كلانا طوى ظله ذهليز الزمن!! ولم يبق في هذا البلد سوى القمر،والشمس، اللذان لم يتغيرا،ومعهما تحديقة ذلك الهيكل النسري المثبت،وهو يتابع حركات دبيب النمل المتدحرجة،من على الرصيف،حتى المغارات بدورها ستتحول إلى أدوار تؤدى،ولو مثل زحف سلحفاة،أو بمجرد لطخة عبثية عفوية

كمثلث،أو مربع تكعيبي على جدار،أو لوحة مليئة،بالأسرار من ذلك الفنان التشكيلي:

ـ أين كلبتك يا عمي القيرغْ؟أغْ...أغْ...غْ..غْ..غْ..قعْ..قعْ..قعْ أصعد فوق سطحنا،وأضيف ... لقرع انهم زملائي ...!أعطينا الكرة ...! اكتريت الدار أم الحي؟ أم هي لجدك صاحب الرباعية،ولد الحربي الكلب؟ كان الزوفري... يدفع بطنه المنتفخ،ويهدد،بصوت غليظ كلولب باب ينقصه التشحيم،ويهدد أيضا بتمزيقها ...!! أذهب يا واحد الجن! سأطلق الكلبة تنال من مؤخرتك تلك... يا واحد الحرامي!! ثم أكرر له التوسل عمي لقرع هذه آخر مرة نلعب فيها هنا ويجيء صوت زملائي مرددين معا:

ـ عمي القيرع أعطينا الكرة نعطوك علبة سردين،ونصف خبزة وحبة فرماج وقارورة سكر من عند الكافر مسيو ديسكو فاردي وأحشم على عرضك كيفك كي بوك،لصلع بوجهك مشوط يا واحد الكلب! زوج الكلبة.

ـأنزل من السطح وأجلس على هيئة الهرب،والحجارة بيدي وما أن يعم الهدوء حتى يمزق السكون صرخة منفردة جهة الزقاق هي لولد مشيشة الشمايمي عمي لقرع كلبتك في الليل راك...! لماذا لا تتزوج يا القيرع ولد القرعة؟!! فبشبشة قصتك مع كلبتك راها في فم الطحطاحة،عند كل واحد نتجمهر على مقربة من غرفته فينفلت بابه مهاجما!! وبيده عصا غليظة، كالثعبان يعترض طريقنا يرمي العصا لتعثر أحدنا نتساقط على بعضنا البعض يكثر اللغط فنكون،حينذاك أخف من الظل يتجه من الجهة الأخرى،يعترض طريقي

لوحدي يرميني بالحجارة أفسح له مجالا يتراوغ مع نفسه!فما يلبث أن يصطدم مع عمود كهربائي أسمنتي،ثم يصطدم مع الجدار،والدم يجري من رأسه،وفمه يصب جام غضبه!! على السيدة تاغريد أم العز الدين الفاطمي على تشييدها،مثل هذه المدينة الكتامية! وقبل غروب الشمس اتكأ السي حميدو على حافة عربة الدابة، ونصفه الآخر مستندا على الجدار،وهو يستهز من القيرع الزوفري ومن الإمام الشنقيطي الذي وجد مشنوقا،وعمامته الطويلة متدلية حوله ،بيد أن نعليه ظلتا غارقتين تحت وسخه اليابس،كقطع الكعك المتسرب من تحت سرواله البدوي الفضفاض واصل السي حميدو،والتشدق بحدة هذه المرة في الرواق الضيق بي،ويجمع في أعماقه جام غضبه علي وعلى آخرين لا أعرفهم أصلا يقطنون،بالدروب،والأحياء الفوضوية الشكل يتضرع،ويفغر عن فاه عريض ويوجه لي التهم،بمدبر فكرة تسمم كلبته الزجرة،خصوصا لأهل حيينا لأن كلبته هي سلالة فريدة،من بين الأنواع السبعة للكلاب،منذ سنوات الأربعينيات وشكلها لم يتغير،و في جانفي أرسلت له رسالة،كتهديد بخط يدي،حسب ما يدلي به اللحظة إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث وهو يلهث،ويتنفس كالعجل،وهذيانه ينكسر داخليا خيلله أنه قبض على كآبة الزمن حتى الشكوى لواليه،لا تجدي معه،و ما بقي لي معهم،سوى السخط،والكلام البذيء يصلي ظهورنا اعترضنا طريقه مرارا يقف قليلا يستشعرك،بالإحباط،والعياء لاهثا كالذئب،ثم ما يلبث أن يطير على الصخور

الصلبة دفعة واحدة ليقذفنا بها وان لم... تجده نقطة تلاشي بعيدة بعيدة جدا،باتجاه النسيان فجأة يجيئه الصوت متعجرفا من حميدو:

ـ ألا حدثني،عن الأمرد المقتفي،لأثر السراب،أم عن غزالة؟ أم ذئبة تطارد صغيرها ؟؟؟! تمسخيرة كبيرة هذه،كحبة البطيخ !

ما أسبح هذا الرجل قال سي حميدو،وفي نفسه،وهو يقود خطاه،نحو الغرفة الثالثة ظل القيرع الزوفري مشدوها واقفا، ويخيل لنفسه يجري ببدنه الذي كان قويا،والكلام،والضحك يتكرر من الكهف كاه...!! كاه...!! كاه...!! القيرع يشدوك أحجارك،وسبع دراويش كاهْ...! كاهْ...! عائد من الجبل لا يلوي على شيء، وأعاد النداء السي حميدو:

ـ السي حميدو؟؟ السي حميدو؟؟ كان الصوت يخرج مهزوما متكاسلا يبعث في الادان اقشعراراً ساخنا زائغا لامست أطراف أصابعه قباعته،لتسوي من اعوجاجها شعر حقا،بالتناقض يتراكض،بداخله،وخفة باردة مثل التي هبت عليه من المكيفات الهوائية،للرواق،وهو ينتظر ومعه على الطابور شخص آخر يود شطب اسمه من سجل البلد أيُستفاد من برودة الإنعاش الهوائي،للمكيفات أم لا،ثم تدحرج إلى خارج البناية فاقدا الأمل تقزز من هرم البناء،وظل يتساءل،ويثقل من ذاته أسند خسره على قضبان الجسر وراح يتأمل الضفادع ترتطم على عفونة البرك،وتفتح فاها، كالمصيدة للجراد الصغير تتسرب لها،نحو حافة الوادي،بنعيقها!! ومن الجهة المقابلة،للصخور الصفراء،والرمادية تنقض عليها هي الأخرى... جرذان لا تعرف من أين

هجمت عليها؟! بشراسة رفع يده الزوفري،ثم أرتطمها على القضبان متأسفا يا للكارثة كيف انقذها؟!! ومن أين أسد المخرج على تلك الجرذان؟! الجسر المعلق يفضي إلى غموض باهر أسفله نشوب معركة طاحنة بالعلب الفارغة،والقاذورات، بين سكيرين..كانوا يريشون البصل،بقطع حديدية،لعلب الطماطم، والسردين،والزنبريطو، بينهم داير حالة في رئاهم التي تعج،بثقب صغيرة تجدب إليها أثناء التنفس رائحة المياه القدرة،للبطن رد بالك يالزوفري؟! ساعدك ضعيف أنت حقا في العشيرة،ومن يساعدك على سد وترميم ثغور القبور حتى لا تتسلل إليها الجرذان،وتخرب أسرارها بالكامل،ونسوا كبيرو الجرذان قبريوبا الثاني ملك شرشال الذي بنى،لزوجته كليوباطر قبرا عظيما، كعربون حب لها،وأنت ظليت هكذا فوق جسر من الورق الفاخر لايهم إن كانت ذاكرتك مجرد بطن كلب جائع،وهو مموه،عنك بنظارة كاشفة للنوايا وغائمة،ولربما قد ترشح نفسك لنائب في آخر حافة من البلد كالانبياء بالنسبة للصوفية بما فيهم شيخهم التوحيدي انك على حافة الجسر طوال،وقوفك بهذا الطريق رقم ٠٧ المتهاوي من أثر أزيز الطائرات المروحية الخاصة بقتل وتسمم،بعض الحشرات الطائرة ومخربين المدن،والقرى التي غدت هذه الأيام ظلالها تغزو المدينة...! يتوازى أثرها تماما،مع نداء خاص أسفل الشعاب وخربشة الطيور، والحمام التي،كانت،منذ غبش الفجر واجمة في أوكارها،وحركة الدواب النضوة،وغبارها المتصاعد في السماء في الواقع...، كانوا يعرفون خطر القصف،والسلاح الثقيل،وصل الرابع

الذي كان يقوم بحراسة الملثمين بعيدا...! عن المركز أستقبل كبيرهم صفق كشارة على التحرك،بالجهة الشمالية،والدواب تسلك لوحدها الوديان،والطرق الوعرة سيرموننا، بالقذائف،ونترك النساء تستقبل رجالهم يضاجعونهن،بدون خجل رغم تشددهم على فروجهم!! زعق الأمير في أحدهم يديك وراء ظهرك يا كلب.! أنهك الأمير كل حماسه،وتركه يتعلثم في كلامه،لكن أتسلكا الطريق معا نوعان من الدواب،وعلى شعبة واحدة وخطر بباله جمل وحمار،وكأنه يتسلى في حديثه زعق فيه،للمرة الثانية وكيف يتفاهم فنانهم التشكيلي مع ذلك الصحفي الشرقي المنطقة يا سجين آه...؟! كلاهما يجمعهما الإحساس،وغريزة التأمل أراد أن يبتسم آخر كان مشغولا بتشحين الغنائم،بالحبال الغليظة الخشنة،لكنه سرعان ما كشم ذلك،بصدره خوفا من حز رأسه،أو تعرضه لتقليم الأظافر،وبعدها تفسخ جثته، وتعليقها على شجرة شبيهة بشجرة الزقوم!! كما توهموا أن علق الأمرد بوحنين على شجرة السدر أو الزيتون أو التوت،ونشر ملابسه الخرقة، على صخرة كبيرة،بجانب كومة عنصل لطرد الذباب،و من يكون ضابطا،أو شاعرا أو رساما أو أي مسئول كبير البطن منتفخ الأوداج يختار الموتة التي يموت بها إن قيد حيا،والإهانة تلحق عشيرته الواحد تلو الأخر؟! وقف قائد الجند،وهو يواصل في ركل الرأس توقف،عنده، ثم أشتد خلافه الذي ثار،بينه،وبين قائد مثله أمر،بقتل رجل صالح متورع في الدين على الطريقة الرحمانية!! منذ الشيخ الحداد.. كان ينقل ابنتيه كل صباح مساء لمدرسة قرآنية تبعد عن الدشرة بـ ٢٥ كلم مرورا بالأدغال تذكر الغلام

النفق السري،وأسلاك الكهرباء،وخمارة مسيو ديسكو فاردي التي ما تزال تحز مرافق،ذلك الشخص الغريب،ود لو يبكي،وينزل دموعا محزانة عليه في تلك القيلولة مع طنين الذباب الساكن على مقربة من عقربا ساعة المدينة المعطلة،بخيوط العنكبوت عاد الغلام يستعطف الأمير لعله يتراجع وهو في كنف خالة الدرويش جال بالخيمة عدة مرات،ثم تشجع،وأقتحمها قبل أن ينطق أرغمه على السكوت ما ستقوله أعرفه أصابه شبه بكم؟!!!! نام على شفته السفلى شي كالثلج اللعنة عليك وعلى أمك وعلى مؤخرتك يا ابن خلدون عميل عرش متآكل أراد الغلام الانصراف،والاستئذان،بالخروج أجبروه على الوقوف جامدا، دون أن ينظر إليه،وهو يورق كتاب ضخم نجا من الحرق،والتلف على حافة الوادي وآخر هو لأبن تمية...! ومرة بعد أخرى يضع يرسم علامات،تحت بعض المجلدات المبهمة،ولما طل الفجر أمره بملامسة الكلام تثاءب الغلام كاد أن يسقط على الصناديق الخشبية المتراكمة بها المجلدات تقلصت يد الأمير مددها لطمت الغلام حتى أنتصب واقفا،وعباءته القصيرة مبلولة بالبول نزلوا حراسه،بكل لوازمهم،للتنفيذ وقفوا خلف زميلهم زمجره الأمير انك تفكر فيها يا واحد اليهودي لا...؟!! يا سيدي أقصد أن الرجل الصالح الذي يطلب اغتياله هو حفيد شخص شارك مع صلاح الدين الأيوبي، وهو سيدي بومدين الذي حزت يده من صليبي مازالوا حفدته،بأرض كنعان وهو يحفظ الترميذي،بكل حواشيه توقفت الفرسان فجأة،وهي تجتر في لجماتها الحديدية رسبوا الجدار الأمامي،وخرب الضريح

عن آخره تقطبت أجبنة الرعية وتأسفوا بعضهم،وانتابت شكوكا محيرة جميع القرى مات مسكينا حرس الضريح الحقيقي،منذ زمن وجف البئر صدقت رؤياك يا سيدي بومدين على دشرتك العابد التلمسانية بغلة سيدي الغوث تقدمت وحدها،ثم توقفت على سر وفيه حفروا البئر! ألزمه على الصمت وأمره، بالانصراف...! شعر الأمير،بثقل لسانه،ويده وهو يتذكر تكرار رؤى سيدي بومدين له استرجعت ذاكرته قصورا تلمسان،وأولاد نهار،والعشعاشة،وجبل العصفورة،وهي تحترق،برجالها ليلة أول رصاصة،بينهم تثقب رأس فرنسي،وتعبر أحد المستقورين،وهما يتصدورن من خمارة البلد فاقدين الوعي أستئذن،للمرة الثانية سيده مابقي غامض في جعبته،منذ قرون أرغمه على النطق تعثر الغلام أزبدت شفتاه،وقبل الغروب،بعد ثماني واربعين ساعة أمر الأمير،باستفتاء منهم سبعة قراء لإعادة النظر في من هو أولى،بالخلافة علي،أم معاوية؟؟؟؟! غاب السبعة رجال انتخبوا عليهم،وبعد ربع ساعة،وجدت أعناقهم دائرة،كالدجاج على ظهورهم،دون أية قطرة دم!!دارت عدة شكوك،بين جلهم،وتناسوا حتى مصير الأمرد بوحنين لكنهم في الأخير خلصوا إلى أن السائل سقطت عليه لعنة السماء، والأرض والسحرة! وشجرة لالة شافية تبرأت من أن يدفن على أرضها وجثته لا تنتصب حتى أكلة،للأمرد بوحنين لإسقاطه،في الشراك وإرغامه على البوح،بسر السلطان!! وضع الكيس الذي كان على كتفه جانبا،والقيرع الزوفري استدار وصعد نحو ربوة خاصة مطلة على الدشرة والقصر برخامه،فوقها،بعدة

مسافات،ثم نزل على عين فوارة، بماء عذب ظل يرسم على شفتيه ابتسامات بلهاء،وهو يتذكر خرافة الشخص الذي ربطوه،بأسلاك الكهرباء،وقطرات الزيت،ومرة بعد أخرى يصفع وجهه، بماء بارد من الفوارة حاسا، بدفء الأمان أثار فيه حب البقاء من جديد،حيث لاخطر،ولاخبر السفينة التي تحطمت،عن قصد،أو غير قصد أنتصب بلغوث وهو ينظر،ويدقق في الأسلاك التي قيلوا أنهم ربطوا بها الشخص على الطاولة جراء غرق السفينة تقرفص،وشرع يمد أصابع رجله معترضا تيارا صغيرا من الماء وثلاثة قرون كاملة من وقوع الكارثة،والضحايا عرضة،للجرذان،والجراد،وسجلات البلد سارية البحث عن الألقاب الغريبة الأمرد بوحنين ما يزال معلقا،بالشجرة على قطعة القماش! والخبايطي يعرفوه جيدا أهل المدينة،والقرى، ودائما،ريثما يستفيق من غيبوبة السكر يتكئ على الرصيف،ويتحرك،نحو غرفته في كبير من الإستحياء،والخجل وقبل نهوض الحي وأخيه يكون،حينذاك قد كنس،ونظف الأزقة من أولها إلى آخرها،دون مقابل حمل جميع تلك القاذورات،على عربة صغيرة باتجاه الخلاء! والنهر،ولما أنتصف الطريق المجهول بدأ يتناهى إلى مسمعه تدريبات خاصة،ومن حين لآخر ومرة بعد أخرى يعمل على تكذيب أدنه ثم يعاوده طنين النحل ذكور واناث وعاملات !! ثم لاتفتأ الأصوات الغريبة تتكرر والصياح يتعالى : خذها ...!! هيا...!! خذها...!! هيا...!! أجاه أنبي نعم هكذا أرفع العمود إلا قليلا أجاه يا نبي...! تذكر أن سجل البلد لا يجهل هؤلاء وأي منهم ربما قد يكون يعرف وان قريب وان جار

للشخص الذي دسوا له، بفمه قطعة الإسفنج يوم ألقوا علينا القبض، ونحن في إضراب على تعطيل عقارب ساعة المدينة تشجع عبد الحق وظل يناقش رئيس ديوان السلطان،والحرس على أطرافه في كل صغيرة، وكبيرة حتى على الأحذية المطاطية التي ترفس الجثث،وبياض الصقيع الحائل على أشلائها لشدة برودة المستودع السابع والصحفي يشهق،ويبكي،بصوت مرتفع،وخصوصا لما أدخلونا الزنزانات أرتطموه على الجدران،فزاد في البكاء،كالعذراء التي أفتضضت بكرتها بينما شميمة،و،!!غوث تجردوا من ملابسهم ليلة كاملة،وأنزلا بهما البئر، ثم ارموهما داخل أنفاق مظلمة، كالبضائع!! ولم تبق تتحرك فيهما سوى الروح قطب الفنان التشكيلي حاجبيه،وقال في سرية نفسه،ومن عرفني بك أنت ؟؟؟ ودون أن يوجه الصوت له،وكأنه سمعه فرد عليه،وأنت من عرفني بك أيضا بدأت يدي ترتجف لوحدها،وكأن أصابعي مقد ميينا،على بشر خاص،وأنا أحس،بشيء غريب يود مداهمتي لعلها أصابعي ستتحول إلى فرشاة تتحرك،بمشاعري،وأصابعي ربما على وشك إصابة بحساسيتي مرض التآكل أو تلطخ هذه الجدران رد عليه سجين متهم بالعصيان،لأوامر ضابطه أرجو أن لا تكون كثير الأوهام حقا... أوهامي تكاد تلامس خيوطها،منذ أن تسبب في غرق السفينة؟! هوية الرجل الملقي بالزقاق بنفس الحي،الذي يسكنه القيرع الزوفري لست أدري هل تفطنوا أهله له أم لا؟!!! ريمو أنا أيضا قد شغلوني،بمصير السفينة واللحظة أفكر فيك،ولابد أن أسلم نفسي مهما كلف الأمر على تخلفي، وأدفع ثمن

تهاوني لقد اتهموا حتى ابن أخي وفي اليوم الثاني من مولده، بأنه هو الأمرد بوحنين عن طريق الإشاعة،والألسنة شاحذة لاترحم حتى العربي بن المهيدي في قبره،وسيدي لخضربن خلوف مسكين! القرية يا خويا هي مصدر الإشاعة عن المولود وأشياء الحكاية الأخرى كلفتنا الدينارات لانتشار الجريدة وأن لا تحرق حتى يشيع خبر المدينة المصنوعة من زجاج،كما ألفها المسعودى وراها بأم عينيه وحده. وبجانب الخبر مربع عليه بلغوث،برسم كاريكاتوري،وهو يتهيأ،لأنقاذ الجثث من السفينة،بحيث أراد بها أن لا تغرق، لكن أصحابها دفعوها بنفسهم،نحو الوحل و قذ فوه بالحجارة،كما قال السي حميدو،للزوفري و سيقضي ردحا من الزمن في غياهب الزنزانات،وان تفطنوا له نجا، وان نسوه، وراح ضحية الجوع وفتحوا له النفق الأخر المؤدي إلى الصحفي، والشخص المقطوع الأصابع اليسرى،لقدمه،وأختك يا ريمو من أعتصر لها نهديها،كلبة بنت الكلبات قالت لي لما انتشلني من السفينة والموت تروادني أحمر رؤوس تدياي،وهو يعصر...!! ويعصر...!! سقط مني مؤخرا ماء لزج سألتني في يوم ربيعي لم أجب عليها؟! و في اليوم الثاني توهموا أن رجالاً خصوصيين لا يعرفهم أحد من أهل المدينة دّروا له مسحوقا بنفسجيا قاتما يبشر،بعقمي خلايا نحله، ثم أخذوا ابن أخي عصروا بطنه،بالأقدام الغليظة، ثم جهروا زجاجة خمر سكبوها في جوفه،ثم أجلسوه،على عنقها ويروى هؤلاء الشيوخ في الحلقات المسائية،لما يقترب الغروب وهم على ربوة رملية كبيرة جدا،والنوم يداعب عيونهم وهم يتزايدون

في دفع الدراهم للحكواتي،والله يا خويا شميمة لم أتخيل هذا إلا في ألوان،وخطوط لوحة الفنان التشكيلي،الذي ضاقه المكان لرسم تمثال للشهيدة قريش قبل أن تحز يده بساطور ابن حركي كان بينهم فما يرووه هؤلاء الشيوخ يدعو للحيرة أترى زمن الأخ يدفن فيه أخاه تحت بقايا حطام السفينة؟! كل شيء تفتت بيننا بما فيه الذاكرة ليتنا نصحو مع الأمرد بوحنين تماما، ونبتر خيط الحكاية الخرافية، وإحدى عشر رؤيا أخرى،وسبع حقائق حتى لا تستفحل الظاهرة مرة أخرى وتتلف الدواة،والحبر والمداد وكل ما كان متوفر للروي،بجانب الراوي وهو على قارعة الدشرة،تمكنوا من إستمالته مع دابته المهداة له من قبل حراس السلطنة،والتي يركبها أحيانا الجفل لوحدها،بحيث تصر على مداهمة كل شيء! حتى تسمع آذان المغرب،ومواء الذئاب يملأ السماء، لأنه زمن يعود بها الى رجال القصر،الذين كلف هو شخصيا، باستشارتهم حول أولوية الخلافة لعلي أم معاوية؟! ظل الواحد منهم ينظر في صهره،بدون أية حركة،ولاتعليق لاغير،وفي عودته اعترضوا طريقا مولاها الحقيقي بقروا بطنه،ثم حشوه،بالتبن وتركوه،فوقها تسير الى أهله بتؤدة مزق الصحفي نصف ورقة عليها،بعض الحروف الخطيرة كان يدسها،بين جهازه التناسلي أقتحم الزنزانة الحارس،كانت ورقة صغيرة جدا متبقية منها حرف الفاء الذي بقي ملقى،دون شعور منه على الأرض مضغه بسرعة،وأبتلعه كالدجاجة،و لما شعر ابن أخي أن الصحفي عاد يستفيق من جبنه أبتسم في وجهه،وتمنى أن يحدثه عن علاقتهما،بفرحات عباس،اللذان ظلا ليلة

كاملة،وهما يتحدثان عليه،ثم سرعان ما توقف قرب دورة المياه معاتبا نفسه ما دخلي في كل هؤلاء؟!!!الذين سربوا أشياءهم عمدا دفع الفنان الحديث،نحو نقاط جد حساسة،وأدن الحارس مسترخية العنان،لقد طلبوا رجال السلطان للمرة المائة أسلاك الكهرباء،ومن عثر عليهم ؟!! وهويته أهو سكير؟!! بحانة مسيو ديسكو فاردي،أم عثر عليهم آخر،بالليل؟!!أم بالنهار؟! وماهية نوعيتهم نحاسية،أم فلادية ؟!! ورأس الأمرد بوحنين مطلوب بألف دينار، ثم أرتفع المبلغ الى خمسة ألاف دينار لمن قبض،عليه ومعه الغلام الأسود الذي فر من ملوك الجن قالبا لهم جعات الخمر والدم وماء الثوم!! وإلا نزوجوه هو أيضا،للمرة الثانية رواحه بنت سكن،كهدية صنيعه وان تضع له بلقيس ثانية،وشرطنا أن لا يسأله،عن شيء أبدا،والأولى لمن أستشعرهم،على مكانه نسي بعض الحرس القيرع الزوفري، وشكواه الحائلة الوسخة بعرق أصابعه،منذ تسعين سنة تجاه أطفال حيه الشكوى واحدة و القضية واحدة،والبلد واحد وقمامات البلد واحدة،وإشاعة الهجوم على خفارة الحرس متعددة، و يقال أنها مجرد دعاية ممتعة و مغرضة من فوه بنت السلطان،وجاريته التي كانت كلما وصلت شكاوي ديوانه،وحرقت أوراقها كورق التوت حتى يغدو رمادا برأت نفسها في المرآة ضاحكة،وهي تمتطي حمارا أدهما بالمقلوب،ونفر من حي شعبيي بعيد عن القصر بكثير..كانوا يحاولون التظاهر معها،والخوف المظلم يراود مكانهم المدقع ذكورهم عراة العورة مغمضي العيون،ونساءهم يندب بعضهم الآخر،لكن في صمت كبير!

وهم كهياكل صور كبيرة منمطة رفقة كلابهم القمطيرية،وذلك لإظهار حسن نواياهم تجاه السلطان وقصره،وعلى أية اغتيال قد يباغت أول حراسه،ويستغل الأمرد بوحنين فرصة إرسال النشاب المصهر،واغتياله بنفسه،وهم يتسلون الحكايا على حافة صهريج السمك داخل القصر،فالتقطت العيون الحكاية،على ضربة الطبل الضخمة الواحدة الذي كان بين أيدي الخدم،والحكواتي البغدادي وسطهم يداعبهم،على وجه الدعاية العذبة، هاجموا مركز السلطان، بدون أية إشارة،لأنهم على علم أن هذا السلطان ذاته يقال أنه عثر،عليه، منذ سنين باردا في سلة مهملات ذات صباح عاصف،وخرقه الوسخة تحاول خنقه قتلوا ما قتلوه،واختطفوا زوجة رئيس الحرس الجميلة الجسد،والحوض معا في بداية شهر مارس القرنفلي،ثم أمروا الحاشية بتسليم الخفارة...؟!! وسألوا عن الزنزانة التي يسجن بها بلغوث،والسجين الذي يحفظ بقية قصة خرافة الأمرد بوحنين الذي بدأ يشتكي من ضعف البصر في آخِرِ الأمر حسب الحكايا،وبصورة ساخطة عزوا أن تحز يدا ولسان الصحفي الذي كان يوما ما لسان حال رجال السلطان حبا في مضاجعة فتاة رئيس الحرس،والذهاب علنا إلى مرقص مجهول قريب من ما خورة مسيو ديسكو فاردي،ومع ذلك فلم بصق،عليه السلطان مرة بنفسه في إحدى الصهرات رغم حب ابنته له،وبغضه من قبل الجارية التي زجرته لعدم تكذيبه خبر عطس السلطان،وإصابته،بالزكام ليلة القدر من وزردة سيدي علي قائمة بسمتغانم،وأن قصره،ورجاله احتفلوا ليلة كاملة،بنجاة الراقص الذي

صهر معهم تلك الليلة عاملا ما في وسعه على تفسير لهم حكاية الزوفري وحذفه منها ما يغضبه حبا في قصره،ولعدم خذش حياءه،وربما يدسها الأمرد اللعين، بين طيات المسودات،لئن يفسد ودية الحب العميق،بيني،وبين السلطان المصاب،بحساسية السر تمنيت أن أساله عن سر النزاع،بين علي ومعاوية؟!!وبيني وبينه وفي سرية تامة؟! حتى لا يسترق سمعنا أحد،وأن يمد الرعية بإعلانه،وسط ساحة الدشرة، بأن أي جواب،بخصوص النزاع هو بدعة،وفذلكة تقدم حسين وضع كومة من الأوراق،فوق الطاولة،ودون أن يستعين بتاغريد أم المعز الدين الفاطمي في تشييد مبناها حمل القلم،وظل يخطط ولما يستشعر،بالعياء كمسامرات التوحيدي لوزيره ابن سعدان وفي كل منتصف ليلة يختم،فوق غلاف المخطط عبارة غامضة جدا(رمفرزد،وبجانبها حرفي ق وف واللام،وكأنه كان يود رسم بها قدم مقفعة الأصابع من شدة بثرها العنيف) ومع ذلك لم يشأ الاستعانة بها خشيت أن يخسف به الأرض ابنها،ويخنق رأسه قبل وصول الأمرد،والقيرع الزوفري الى مرسى السفينة!!!! أو قد يسبق أحدهم الآخر أو أن يتخلفا معا في نفس الدقيقة،والساعة،والثانية،واليوم،أو يحضر أحدهما فقط،لارتدائهما معا ساعتين معطلتين العقارب من صنع كفيف..كان يحضر كل أسبوع جمعة بصندوقه الخشبي،مع أسواق القرى الوافدة...!لكن كلا الشخصين لا يحمل الواحد منهما مشاعر الآخر... ويعمل على البطش،بقاذوراتها،نحو البحر! وان يتهاوى هو بنفسه في البحر لأصابته بمرض خطير في عينيه رغم،ذلك فلم

يكون أفحم القلب مثل نائب السلطان،ورجاله،فقد حسب ما قيل عنه أنه ظل يشهق، كالطفل،لما سمع بغرق السفينة،وحكايتي معها،و برودة حديد أسلحتهم السوفياتية الخاصة التي تلقي،بأطراف البشر عاليا مشدوهة في الخواء ،وحتى كلبته ظلت تعوي باتجاه صاحبها،وأقدامه الغارقة في الوحل ،والطين الأسود العكر المياه فاستشعرت،بدنو الخطر،منذ أن لم يعد يتردد المسح على رأسها المزركش وفمها الممتلئ،بالذباب مثل أمها التي كانت تؤذن أهلها،بالخطر الداهم قبل،وقوعه زلزالا ما قد يحدث!!ورأسها ملقى على قطعة سكة حديدية أسكنوا لها قطعة رصاصة،ببطنها عوت طوال ليلة واحدة وماتت على الساعة الثانية ليلا،منذ القرن التاسع عشر ظلت القنابل،والرصاص مثل رجال تفتيش تبعثر الذرة عن أختها أهدرت الفروج،والنساء محشويين ما يقارب الأسابيع داخل أكواخهم هلعا منهم، ورجالهن يمشون،فوق نبات الشيح،والصبار،والحلفاء،لئن يضمدون جراحات اخوانهم الكبيرة من جراء المدافع والقنابل،ودائما قبل الفجر.. كانت تنطلق المدافع،وتواصل الدبابات في تخريب المداشر النائية ،وماعدا ليالي القدر التي كنا نغمر فيها بحالة خاصة جدا والخيط الساطع،بنوره، كالسيف يخطو تاركا أثاره في الخيلاء يملأ فراغاتهم المشقوقة،بالحزن الذي قيل من جراءه روحانية الأمرد بوحنين تلاشت، والغضب الشديد من قبل الزوفري على فرنود ايفطو المعدم من أجل حبه للمدينة وفي عينيه اجمل واغنى وآخر مغامرة بحرية زرقاء تركها وراءه الوطن،والنوارس تحلق خلفه..المدن التي أغتصبها

الخفافيش، والزلازل،والبراكين،و الحروب! ومات بغباء رغم أنفه، منذ عام ٥٧ وكلبة الزوفري تشتم في ملابسه،وكأنها تواسيه،وزنزانته الوسخة الفائحة،بترته وهو يقاد الى العدم المتناهي الأمرد بوحنين استفاق ربع ساعة تأسفا من وقع الجثة على الأرض،بحبلها وجد ذكور النحل ميتا، وعسله شبه يابس،والنمل متوغل الهوينا بأحشائه،ثم ما لبث أن عاد، لسباته العميق وود القيرع الزوفري،لو أنفتح الملف من جديد مع رئيس الأحياء في البلد مباشرة،بعد ملف المندثرين أثناء غرق السفينة،وهي تدافع عن عذريات المدن المفعمة،بالحب،والحرق اللواتي تعرضت لهن منذ عشرات السنين،والمدافع الأسبانية خلف المراسي ورأسي ما يزال ثقيلا الشعر،بالزيوت المحروقة،والجرذان تطل علي من جحورها،تحت جذوع النخيل،والأعشاش،وأشعة الشمس تتحرك رامية،على القرى النائية حكمة السماحة،وهي تتسلق كما يتسلق الزوفري جدوعها النخرة،بالسواد من كثرة الحرق،والعطش والإبادة الجماعية،ولما حدث لخال أبيه بوبغلة قديما،وزمالة الأمير عبد القادر التشريد،والروائح الكريهة من شدة انتفاخ دوابهم الميتة،والهرب الى الأمام وهي تلك البغال،والدواب تنصرف عن تلك الصخور الصامدة،في طريقها الى الأماكن البعيدة،عن دخان المدينة، المداشر،وزلزال المدافع السفينة لوحدها بدأت تتآكل من جراء الصدأ والديدان التي تقبع تحتها والخنافيس،والزواحف،لتغدو تبادل نظرات الجرذان السكون المطبق المخيم عليها،بالحركة الثقيلة،والقرى هناك تحاول قدر

الإمكان أن لا تخيب ظن سكانها التي ربما،بعضهم قد ودعوها في زمن الغبور حتى لا تتهاوى،عليهم من أسفلها الى علويها ظلت الأشلاء،وسط المدينة متناثرة،لكلاب القتلة،ومغتصبي الذاكرة المرهقة!! في تحركها البطيء،مثل تلك العجوز هناك مسكينة التي تتنفس التراب،وتستنشق رائحة الجثث ساخطة على جمالها الفتي جسد واحد ومائة وجه مضحك،والكلاب تخطو خطوات،على تلك التربة الطرية ،والمندية من تحت خشب السفينة الى بقية القرى تبصبص،بطريقتها الغريبة،وكأنها في بحث ذؤوب عن طعام الأمرد بوحنين،وعصاه الملقين أسفل جذوع النخيل من هو الأمرد الذي لا يشأ الصحو بإرادته جراء فقره؟!! فعلا الزوفري أستكمل معي دراسته الى الكتاب،وطرده ذلك الشيخ القرآني النحيف الأسود البشرة المسمى ابن التواتي،أو الشنقيطي ،لقذفه شمعة الإنارة بواسطة حذاء أحد زملائنا عم الظلام الدامس، وأوشك بن التواتي الكسر من يده ورجله،بفعل سقوطه على عتبة الزاوية،وهو يلاحق القيرع الزوفري!! وثالثهم لم أعيه جيدا جالسته مرة ،ولم أتفطن له إلا بعد أن تلاشى،لقد مسه شيطان الجنون ما عساه أن يفعل كل شيء تحول في نظره الى سراب إلا الدم..الذي يسري في عروقه الضيقة،والذي ظل يعاود في كل مرة دورته المرة،بعد الأخرى فضلا عن مرضه المزمن السكري،والذي أصابه جراء اختلاط فرحه بحزنه دفعة واحدة! هو ما يزال يقتات من قاذورات السكارى،والكلاب الظالة المترامية أسفل السفينة في هذه اللحظة..كان قد أنهى الطبيب زيارته الصباحية لنا وتمنيت أن تغادر

الغيبوبة،بصفة نهائية الشخص الذي هو على مقربة من مرقدي،وأستمتع ،بحاكاياه، حول الغيبوبة،وأثر التعذيب التاركة أثارها فيه،وكيف تصح الأشياء إلا مع خرافة الأمرد بوحنين الذي تضرب له السلطنة ألف حساب وحساب!وحتى القيرع الزوفري،ربما لم يفقه من هذا،أو أنه يحتفظ بأسراره عنده حتى لاأكتشف رويدا رويدا ما تفوه به السلطان،لرجاله خفية،عن جدران قصره،وعجزهم إيجادله دواءه..مع وعيده بكسر كل ما يعكسله صورة شكله،ومصادرة كل مرآتات الرعية،وسحقها،على الأرض؟! مرة زارني قبل ولوجي قاعات الاستعجالات،بحيث تظاهر أمام تلك الغوغاء من المسئولين،بأنه لا يعرفني خوفا من رجال السلطان،ومكائد جاريته المهوسة بي وأني رفضت أن أمدها بجمجمة ضبع وحوافر جحش لكنه أبيض اللون،أو مائل إليه،ودجاجة عاقر من جدتي وذلك لأمر سحر، وشعوذة بيضاء،ولكي يضاجعها مولاها ثلاث مرات في الربع ساعة أغرتني أول مرة،بإعادة ترتيب أشياء القصر على طريقتنا،ودون أن يعلم حتى السلطان ذاته في الصباح الباكر نزعت أزحت صخرة طوبية من جدار كوخنا،وجدت أول دجاجتنا تفرخ لنا كتاكيت صغار،وجدتي بخته تبتسم خلف الشباك،وأحيانا تداعب ديكها الضارب الى السمرة،وأقدامه يخطهما بياض دائري،وهذا الديك أشد ما يكره!! الجرذان،والحشرات الطائرة،وطنين الذباب!! بطنينه الوسخ من قمامات المدينة النتنة أول ما فرحت به بخته هو نضوج ديكها الذي سوف يعينها في تلطيف أركان كوخها موسم تكاثر الجراد،و سفسفة الجرذان التي

قد تقطقط،بأنيابها المسمومة صغار الكتاكيت اختفيت،لما قفز من على الكوخ،ليلقي بنفسه في الهواء ساقطا على ركام من هياكل شاحنات خضراء خربة،وقدمه تنزف عطبها!!و في كل مرة،وهي تنصب الفخ للذئب،والجرذان تعمل على نفضه،ثم تلوي على عقبيها نحو جحورها تحركت،لما شعرت بشيء خطير،وعلى غير ما يرام سارعت الاختفاء بصفة كبيرة،تحت عجلةعربة ضخمة انكمشت على نفسي؟! وأنا أسمع أحد الهلاليين،وهو يبتز رستميين، كانوا قد أجروا منزلا على مقربة منا هم من تيهرت وأن ما أحدثوه ليس من تلقاء أنفسهم،وبدأ يقف،ويغدو،ويروح ويعصر ذاته، ويعلم أن التهمة الملحقة بهم،غير ضرورية بالمرة كان يتحرك لوحده كالمسرحي،ثم لا يلبث يتحسس عصا من حطب بخصره،وكأنه يمتشق سيفا وهو يتوعد أن يهزم ثمانية واربعين رجلا، وشيخا،وقبيلة حتى لا يشكلون في ما بعد أعراشا ويهاجمون كوخه،ويكونوا خطرا على القرى!ثم دس سيفه في غمده، وراح يتكرم،ويتوسل بضريح أحد الأولياء لابعاد التهم،وفكرة الاعتداء المدن جنسيا،لما وضعت الحرب أوزارها هو بالذات الذي راح يكوي،بعض الجثث السيئة النية،بحطب متقن شبيه،بأعقاب السجائر التي قد تعدي،أو تحدث خطأ أو عمدا،وتخلط في بعضم،وتحزب النسل من أوله الى آخره ألحقوا المهانة،حتى بالأموات الذين نبشوا قبورهم بجرافاتهم الحديدية،وأياديهم الصلبة من شدة الحقد،وحتى الأرض تود الزحف،نحو كوكب آخر وتخشى،وقد يعاد المشهد في يوم ما ويكون حفل زفاف نسل أو محب،أو

آخر سلالة الخدم،أو العبيد لأبن عبد الله الاباضي الشيعي فيبكي،ويمسح دموعه على ضريح أبيه ورباطه يتجرجر خلفه،وحتى مجلدات جده طواها ألف طيه داخل قطع من القماش الأبيض،وعمل على حشوها في صناديق خشبية ضخمة لا منفذ للجرذان،والفئران لها مسمرة،ومغلقة بإحكام،بواسطة حبال النوق أبتسم القيرع الزوفري،وظهره يؤلمه من جراء شيخوخته،وهو يتسلى بحكاية هذا الشيخ القروي التافه العازم على مقابلة السلطان وشكواه المكتوبة،على ورق اصفر خشن حائل لونه،بيده ضدهم حول نصيبه من الماء الى حقله وآلته التي أفسدوه اله عمدا في القيلولة،والتي أطلق عليها الزوفري،بالمضخة السحرية المسكونة،بحركة الجن.

في المساء،،وهي آخر زيارة هددوا الطبيب بتشويه،بعض الأموات ،ورميهم بالساحة العمومية ممزقين الجثث..ماذا يقولون للرعية؟!!!وحتى النسناس الدابة الوحشية،ذات اليد الواحدة،والرجل الواحدة،وآكلة اللحوم، لم تعد تظهر،منذ قرون مضت،وأهل اليمن يرسلون،عليه كلابهم السلوقية..فتصطاده فيأكلوه في فطوراتهم،وعشواتهم،وهم يتسامرون،حول شكله،وضعوا له فوهة المسدس على ناظريه إن لم يوقع، وعلى وصفة مرفقة،بوثيقة طويلة تدين،بجنوني،ثم إنتحاري لوحدي! في البدء تشنج، ورمى الطلب،بدرج مكتبه،لكونه كاليدوني حقا،وصاحب ضمير يؤنبه كثيرا رغم إدمانه على الخمر،وهو غير عنصري كشيخ قبيلتي!!،لكن في ما بعد أرغموه على الموافقة بسبل أخرى،وهو يضحك مشغول البال، بين أروقة قاعات

الاستعجالات،وداخل الأماكن الموحشة،بالجثث ونداها البارد التي سيحولها الى مجرد كلأ تستغيث به الدواب توقفت الأصوات، انسحبت العروش التي تحدث عنهما الراوي الطاعن في السن تهالكوا سريين على المدينة،والجو يلمع،بالسيوف وشارات الخوف تعزم على ربطي بأسلاك الكهرباء،و إبعادي خارج القرية خوفا من أن أتفوه،بأي شيء يكون وخيم النتيجة،عليهم! حضرتني صورته كاملة،وعصاه يتسبل بها الطريق،ثم رأيته،و موسطاش يبتعد، لوحده تسمر على الزاوية،بعد أن واصل يحملق فيها كثيرا وفي المربع الحديدي المعلق بحي قومبيطا،وعليه تعداد ١٨٧١ ما عرف أن يسأل؟!!! أو أن يستفسر المغزى من تثبيتها هنا،أم هي مجرد رقم يرمز به،لأصحاب الحي،وللوهرانين عامة؟!! موسطاش حدث نفسه أنه ليس،كالولي الصالح الذي لا يتدخل في ما لا يعنيه خوفا أن يحدث فجوة،بينه،وبين السلطان وجدران المدن ملطخة،بتلك الخطوط،والكلمات الخطيرة!!،أو كمسيو ديسكو فاردي الغارق،مع السكارى العرب،الذين تلعب الخمرة،بروؤسهم،فيعمدون الى تحطيم زجاج،وطاولات حانته..!!غير الشيخ وجه الحكاية...! وحين توقف أستطرد،وأخذ يصب جام غضبه على بن خلدون وعلى نسيانها لي والى الأبد وعلى كهفه وطريقته ولم يثن،سوى على تصوفه،وتزمته ألتفت الشيخ نحو الحلقة،فأستغرب في شغف هؤلاء الرعاة،والفلاحين،والبدو الأجلاف في الإصغاء إليه،و بكل بهذه العناية،وغير مباليين،حتى بحر هذه البيداء،أم أنهم يودون الإمساك على خيط السر!! زيادة

على تجاهل بن خلدون لنوعية،للكثير من الأشياء،وهو يمر بأرض الغوط،وبيد أني زدت إستغرابا من نفسي، وأنا ألمح جرو غريب،وقومبيط،بنفسه،وهو يتلمس مؤخرة مسدسه تحسبا، لأي طارئ... الأرض تدور به،ثم تميد،وكأنه يرى نفسه معكوسا في المرآة،و تيرمورلنك معه،ويخال أن الأمرد بوحنين خلفه في ظلمة خيلاء تفطن الشيخ،لتحيزه هو أيضا ركض في أماكن عدة بصق من فمه كومة تبغ وراح يواصل في سب بن خلدون،ويعد القبائل التي منحته الهدايا،والسلاطين الذين طمعوه في خرافات،ومناصب وهمية!! لسعتني البرد،و بدأت السماء تتحول إلى سواد مظلم،وحينذاك كانت الحيات الغريبة تغزو مستودع حفظ الجثث رويدا رويدا،وفي آخر الحلقة بعضهم تفطن،بمرور الوقت المحدد للحكاية إلا أنه ظلوا يترددون،ثم سرعان ما يتراجعون على الانسحاب خوفا من أن يبوح،بالسر ويأخذوه باردا من فاه بعضهم!! وكانت مصلحة حفظ الجثث لا تفصلها عنه،سوى بضعة سويعات،لتنقل له الجثة بصفتي رئيس المستودع ويجد الطبيب الرئيسي نفسه مرغما،للمرة الثالثة،للتوقيع على سبب الوفاة المحضرة له مسبقا، ومنذ سبعة أشهر لمرض مزمن أو لأي شيء آخر...! وبمجرد أن رمتني الفلك الإسبانية على حين غرة، لأقاربي،بحسمي القصير المنتفخ وجدت المغاربة ما أن يقضون حوائجهم،حتى يسارعون في الإختفاء، الشوارع فارغة،وصمت كبير يسود الأزقة،وشلة منهم يتحدثون في حياء كبير، حول نبأ اغتيال،أو انتحار الجنرال المغربي محمد أفقير،بالبلاط الملكي؟!!! أمرين لا ثالثهما سبع رصاصات

حولت المكان الى مستنقع كبير،تحول الجو وتوارى الشيخ خلف ظله،أو هكذا خال لي على الأقل هوالذي درسني الفقه،وحفظني القرآن،على ألواح خشبية،ونحن نلطخ أيدينا بالصلصال ... ونلقيها على أراضى السبخ المالحة،أو على جدار الزاوية الطوبي،لتجف فبعد نصف ساعة من العملية تشجعت،لأسأل الممرض في هذه الليلة من المداومة كيف يحدث كل هذا،وينقل الى مستودع حفظ الجثث ميتا مع بطاقته الرقمية الممسكة على كفنه؟!!وقد يجدون بعدها في مكانه،سوى قطعة صابون وسبع شمعات وبيضة مع عود من القصب مقلم في رأسه،وملطخ،بالحبر،وزهرة مذبلة بينهم،أو كما عهدنا صبيانهم،وهو أيضا وشخصيا نفض رأسه بتاجه على عرشه ذات اليمين ذات الشمال لما وقف على طرف و رجال الملكة على طرف،وهم على حاشية النهر،أو البحر،وتلك الجثث من الضباع المفصولة الرؤوس و زمرة من الحمير،بدون حوافر،وكتب ضخمة ممزقة،لكن لاأحد فسر هذا السر العصي ولاأحد استكمل في السؤال عن ما أخفاه الرسول ص في نفسه عن زيد بن حارثة والله واستياء قريش؟!!! وودت أن أكتشفه عنده، وأطل عليه من ثقب سر جداله وحده يفصل،بين الغرفة الداخلية،لبنت زوليخة،ومدرسة تعلم القرآن ناحية المغارة لكني تذكرت شيخي،الذي فعل في زميلي فعلته الشنعاء،وأنتحر،بمرحاضه الطوبي!! ومن جزع الرؤية ظلت شفتي السفلى متدلية،و شعري يتطاير زغبه تلو الأخرى، مع التبول اللاإرادي على فراشي الى حد الساعة أستبد بي الهلع، وخطواتي إليه،وعيني في عينه،وكان دوري على

حـدة يـوم صـباح الجمعـة خبـز الشـعير،و السمن،والعسـل،وابريق مـن الشاي،والبيض المطهي في أواني قديمة حائلة اللون أشار لي،بسوطه،وجلبابه الوبري أن أضع القفة في ركن غرفة مظلمة يسد بابها،بنصف قطعة نخلة يابسة مخترقا زملائي وأنا أتوغل،بحذاء الكبير عن قدمي نوعا ما غرفة يعزل مدخلها، كدلك نصف باب خشبي، كالمغارة،والويل لمن لا يأتي حافظا كل الآيات التي تنسخله،على لوحته الخشبية يحكمه زملاؤه،والفلقة على صفائح أقدامه فتدمي حتى السوط، الذي ينهال عليه به،والدم يفر منهما،حتى يغمى عليك..مرة فريت من،بين أقدامه قلبت دواة حبره،وريشته،واهتديت قدمايا لظلي والبسمة على وجهي! وحنين العودة،للمسح،والتسريج يراود مخيلتي ضربت أخي مرزوق،بصخرة على رأسه!! لأن أمه ليست أمي... في المساء أشتكى الشيخ بعد أسبوع نسيت ماذا فعلت،وعدت متسللا،بينهم دخل المغارة، كالعادة متظاهرا،بالتغاضي عني،ثم عاد،وعينيه على كتاب أصفر الصفحات،ثم سرعان ما انقضى علي من مؤخرتي،وأقدامي المبيضة من شدة التمرن،على الوضؤ وهما معلقتان في عنان السماء..رماني كالبضاعة،ليد خشنة،وهي تلامسني بقوة انه ولي عصام الناطق باسم أعوان السلطان في القرية،وصهر مسيو ديسكو فاردي! قذفني إليه الشيخ اللعين ناكر العشرة،والملح،بلا هوادة ابن من أنت ؟؟؟ومن أي جنس قدمتم؟! ومن أوصلك الى الشيخ يا جرادة القحط؟؟؟؟!

ـ انفلتت حاول اعتراض سبيلي،وقدمي تدمي من وخز شوكة حاول مرة ثانية اقتفاء أثري،بخطوات واسعة في اليوم الآخر...قسمت بكل ما نملك في كوخنا وبهذه الشوكة التي قيحت قدمي،لشققت رؤوس صغاره الواحد تلو الآخر،وكسرت زجاج بنايته تسربت الأخبار الى القرية،والإشاعة رائجة،كشفرة حادة تهشم قلوب الطاعة السذجة المفعمة،بالتدافع في تقبيل الأيادي البيضاء!! ظل رأسي يؤلمني،لما كسر فوقه عصاه أستلطفه، وجمجمتي،تحت عباءته فلم يشأ ومن ثمة أصيبت،بمرض مزمن قريب من الجبن،والخوف من أي شيء!! ولو جزاف الخيالات،وزاد كرهي، للقرية،وتعلقي بالمدينة،وبيع الجرانيين،والسجائر،والتسريج،والمبيت، تحت حطام السفينة،وأوحالها،بقماماتها الملأ بالضفادع القافزة من مكان لآخر لشعورها بالخطر... هي الأخرى وخصوصا أيام الأمطار الغزيرة!! كم من مرة،وأمي مسكينة تدلك لي جبهتي،بزيت الزيتون، والحنة التلمسانية التي عادة ما تخص بها سوى العروس،وهي على أهبة الزفاف الى فحلها،فزاد رأسي في ألمه علي ولأنهم لم يشاؤا تركي والسوط على ظهري! لما رشدت،بعض الشي،لئن أدلهم على الأمرد بوحنين..أنسحب الممرض من الرواق ولج قاعة الاستعجالات في،وحل من الأمطار المتساقطة على أطراف أرصفة المستشفى الداخلية، وخصوصا الممر الفاصل،بين مستودع حفظ الجثث،والبوابة الرئيسية، لقاعة الاستعجالات!! كل شيء مال الى القتامة،وطاهر جاووت المصرع من طرف بائع الحلوى يبعد عني سوى،بغرفة أو اثنين،وهو يصارع

لحظات الموت،دون أية حركة حتى غدا شبه جثة هامدة،وأنابيب الإنعاش ما تـزال مثبتة،عليـه مـن كـل واجهـة أسـابيع عـدة مـرت علـي وأنـا علـى تلـك الحال،وبعضـهم متـرددا علـى نقلـي خـارج البلـد لمواصـلة العـلاج، وبعضـهم معـارض بمـا فـيهم رئـيس الحـي الـذي كـان يشـك فـي نوايـا رجـال السـلطان الموزعين على كامل بناية المستشفى من داخلها الى خارجها،وآلات التجسس منتصبة على بعض النوافذ الهامة في غرفة الإنعاش؟! في هذه اللحظة بالذات توقفت عقارب الساعة،ولاأحد تفطن لها،والحراس لا يفرقون بين الأوقات إلا باستبدالهم،أثناء الحراسة،ومع ميقات الفجر تماما حركات المصليين،ودخان القبب،والرياح في الخارج هوجاء،و لا أحدهم قادر على إحصاء لك زمنه؟!! إلا بعد تسعة ليال، وخمس،وعشرين دقيقة حسب الساعة الرملية عديت كل هـذا علـى ذاكرتـي،رغم عطبهـا النسـبي بدأت،منـذ وهلتـي الأولـى أحسـن عدها،وهو يحاول تدريبي عليها أكثر فأكثر فلم تدم عنده حتى سنة،و أفتكها منـه عصام،بنفسـه،وهو بعـدما كـان يظـن نفسـه،لوحده فـي هـذه الأرض القفـرة كالذي صرع الطاهر جاووت،في تلك الليالي،والآن لقد غز رأسه المشيب مع نحافـة جسـمه تمـدد،بجانبي لـم أعرفـه؟!وكنت لحظتهـا أشـك فـي كـل شـيء اعتقدت في البدء إن هي إلا خدعة من رجال السلطان خصيصا،لئن يسجل مـــا تتفـــوه بـــه ذاكرتي،فيختطفوه،للصـــحف العالميـــة، وميكروفونـــات الصحافة،والاذاعات،وملصقات الجدران،وتبعث صوري، وتعلق بعضها على جدران بابل أيضا!! ويروج اسمي على أفواه الصيادين،ويكون حتما نقمة على

أهل المدينة،وأين يتمكن لهم إقتفاء أثر الأمرد بوحنين؟! الذي يأمل في دقيقة واحدة صوفية،أو سبع ثواني،أو حتى في ثلاثة،أو تسعة أيام مقلدا خصابية غزلية تنينه الو رقاني أن يرتب شمعداناهم التي ما يزال بعضها محطما،والآخر ملقيا،وجزء كبير منهم معوج مائلا،نحو اليسار من على قبورهم..فبعد أن عزلوني، بالزنزانة لم أشأ رؤية،للمرة الثانية السجان القبائلي أو الذي حطم زجاج حانة مسيو ديسكو فاردي! رموني،بالزاوية،وسمعي يتناهى إليه صخب الأمواج،وهي تتلاطم على الشواطئ،وتدفع بالقذارة،نحو الأمام،وهيئة الرجل ما تزال منتصبة على مدخل الغرف يمني نفسه،بمن يمهد له الطريق،ولو حزام جرو،وهو ينم،عن حقد دفين،وعلى عينيه بقع من الدم من أثر ما تساقط أمامه نسي أن يدفن في جوفه لونها،وشكلها،والجثة تنزف أمامه دما!! بمجرد خروجه يصبح أسودا قاتما تداخلت الأقدام، بالميناء،وصفارات الإنذار تنذر،بفتح قاعات الاستعجالات الميناء مليء بالجثث؟!حتى لئن المدينة غدت تصدر منها رائحة كريهة مدججة، برائحة الروث،لكن المتطوعين،ومنهم الصيادون،كلهم جاهدوا ما في وسعهم أن يقفزوا على حكايات أخرى؟! والعيون مفتوحة،على حدتها،والدخان يتصاعد كما تصاعد من قبل من فم صاحبة الحمار القصير التي ركبته،بالمقلوب،كشارة على التمرد،إذن هل هي مدبرة،أم حقيقة؟!! قيل أول من وقف،عليهم هو رئيس الحي،والمياه على ملابسهم،وكشف التحقيق خلص أن درويشيين أحد الأولياء الصالحين نجا،بالقيرع الزوفري،بأعجوبة أطبقاه في أعينهما طوال ليلة التفتيش!! وهو

شاهد على ذاته، والرجل المصاب،بمرض الغشي الذين القوا به الطريق الضيق الشبيه أحيانا،بالزقاق،وهو مكبل بالأسلاك،والأطباء الثلاثة كاملهم لم يشاءون التوقيع إلا واحد منهم فقط...!وبعد السابعة أمروا بإبلاغ الرعية بأنك في ذروة حتفك الجنوني،وفكرة السر،والجدران لربما حسب طبيب نفسي في التنويم المغناطيسي،وفقدان الذاكرة،وحتى النسيان،وفيلسوف محب،للصوفية أيضا... هي مجرد تسلية أخطبوطية من الورق المقوى،أو من نكث الجواري...! الزنديقات الى حين...!! وان المعفى عنهم من قبل السلطان كما عفي من قبل على صاحب الحمار،والجلباب الصوفي الذي ترك بعده القرى يرقصون على أطراف حمقاه،وخيوطهم الرقيقة،الباهتة جدا تشد من أفواههم!! ولعدم تداخل شيء في شيء،حول ما يشاع،وما يدور، بالقصر جفلت الكلاب،والجرذان دفعة واحدة،وزلزالا ما قد وصل،وهاج البحر لافظا كامل أسماكه وحوته،وجعات الخمر الفارغة،والمخطوطات والأوراق المعثر عليها بعد أن تشوهت على أطراف المدن،ورحلتها الرياح بعيدا عن السفينة،والأفواه تزيد من تخريب مغزاها،وجل هذه المجلدات بعضها ما كان يزينها سوى حبرها الجميل،وعلى سطحها جلود مزخرفة ملونة،بالأخضر الغامق،وتشيء،بحتمية أبدية،لذا يجب ردم كل الزوايا،تحت البحر،أو تحت الردم البعيد من البحر الأبيض المتوسط، لئن لا ينقل مداده،ووسخه عبر الأنابيب،والقنوات القذرة،وتضحى أشباحها تزور صبية القرى!! وجدت خلف سرتي جريدة في طي السرير وعلى بياض أفقها الغير المكتوب خط

مخربش،بالقلم الأحمر و مدونة يوم ٠٤ / ٠٩ /١٩٩٥ وعلى دائرة مرثية وياسمينه بريخ معها،وعليه تخيلت رشيدة حمادي،وهي تعانق الأمرد بوحنين!!لئن يسترد أنفاسه بعض الشيء،وهو يحاول التملص منها،بطيفه الخاص حينا أخرى، لمواصلة سيره،و تود أن تسرد عليه هي عالم الغيبوبة؟! حملت لوحتي من وحلهم،بعد أن ظلت بها رائحة القبور فعلا تعبر البناية شمالا والمنظفة تنفث مبيدا الحشرات،وبين الفينة،والأخرى،و تلاحق الذباب تطهيرا للقاعات،وتزعق الجراد الحاط على شبابيك النوافذ الخارجية، للغرف،ومرة بعد أخرى تعمل على إرهاف سمعها لخطف ما يدور،بين أطباء العالم!!وثلاثة منهم عرب واحد نفساني في مرض السادية، والمازوشية،والفصام الشخصي،ورسوم الجسد،وغواص هاو،لأسرار البحار،والثاني طبيب عقول،والثالث مختص في النوبات القلبية،وبينهم شيخ هرم،من الهند قيل أنه يلتهم الجمر،و الحديد المصهر الصرف وبأمره تغير الرياح وجهتها،لكن حرفته طرد المس،والجان من جسد الإنسان،والسحر الأسود،والأبيض الأبيض للنفس والحب،والأسود للجسم، وللسِؤ،والدمار ونواب رجال السلطان،كانوا ما يزالون في نزاعهم، حول إمكانية تثبت لي قارورة عاشرة،لمحاولة إنعاشي أم لا...؟!! وهي المرة الأخيرة،أم أبعث خارج البلد!! ورئيس الحي متمسكا في معارضته،لهذه الفكرة المشبوهة،مع تصادف الحدث في تشويه ضريح سيدي بومدين انفلتت الشتمة،كالرصاصة من القيرع الزوفري رغم تقدم سنه،فجاءه الرد سريعا زم فمك يا واحد الجرو!!!

أني لا أراك جيدا،بسبب سقمي جارية السلطان فهمت مؤخرا أن المخطئ هو عبد الحميد،بحدافره، والناس في المداشر يكنون له حبهم العميق رغم تضررهم من غبار جدران الطوب،ورمادها لحظة الدخان،و الفؤوس تتهاوى،على تهديم الزوايا رفع الشيخ المسئول،عن الفرقة النصف شرقية عصاه،وظل واجما مكانه كل شي تحنط دفعة واحدة،لما عثروا على جثة ولي صالح ما تزال تنزف دما رغم مرور على وفاته أكثر من سبعة قرون،بقي الشيخ يسعل،وعينيه مختلطتين،بأسود الفحم!!الرعب حفرالوجوه، والفرقة الأخرى،وقفت على هوة كبيرة مظلمة بها جرذان منتفخة، والذباب يحوم عليها،وأسفلهم ضريح به كلب ملثم،وضربة لاإرادية من أحد الفؤوس شوهت له بطنه،وعلى جانبه أنبوب نفط ضخم موجه،لجهة مشبوهة! تذكروا حكاية بنت الحاجة ربيعة زوجة عمي احمد الصوفي أن الكلب بركته هو إن أشتم فيك كثيرا وحرك ذيله ترحابا،كان شارة على الود،وان دسها تحته اتقينا زلزالا ما قد يتحرك للمرة الثالثة؟! ويقال أن الأمرد بوحنين،لما علم بالأمر تخلص من رباط دابته،وقرفص على ربوة القرية،ويده تتلاعب بمفتاح السر!!!!! وخنجر مطاطي من نوع بوسبعة يتدحرج من خصره النحيف،ولكنه متأكد أن رؤياه وفطس الرأس آتون لا محالة،وما يقع بجانب رؤياه داخل المدينة شيء عادي جدا غضب أحد الأولياء،على القرية،فجفت الأماكن المائية،وكل شيء عاد لما سلموا وأخضعوا،للتبرك به،بركعتين يوم الجمعة،بليلة القدر فلم تلبث أن تفجرت أمامهم صخورهم الصلبة إلى سيل،وماء خاص يستحم به العماة

والأصم،ومنعد مي الذوق،وكل ذوي العاهات الخمس!! ماعدا الأمراض النفسية وهو،كذلك للعذارى طمعا في الزواج،والشبان البالغين الأربعين المتخطين الحرز،والسحر المشروط!! وهو على السرة،ويخيل نفسه يطير،بالصرة مع الأمرد بوحنين،نحو الشجرة،وجيشهم الخاص بهم خلفهم مدجج،و أيديهم مثقلة برايات بيضاء،وأن يلقوا بالمجلدات الصفراء الورق فقط...! على ضفاف بحر روجي كادة،أو بحر اسطوالي بدأت عقارب ساعة المدينة تنقر بعضها الآخر،كشارة على بدء حركة المدن الوقت حسب هديل الحمام،كان ما يقارب،أو بين التاسعة،والعاشرة صباحا إلا سبع دقائق وأنا ما أزال شبه نائم تحتهم،وهي من حين لآخر تسرق نحونا نظرات خاصة،وأخرى تبطئ المشي،لما تشعر النائب يتحدث عن السفينة،ومرة تتظاهر،بتسوية خمارها تريد،أي شيء كان، أو حتى البحث،عن الصدر الذي يسكن به ما تفوه به السلطان،لرجاله خفية عن جدران القصر الخرسانية،أو المغزى من الورق المقوى رسى فلك صغير،بين صخرتين من على فوق ماء سيدي المجدوب،وحكايته مع المنطقة،وبقي ومن على النهر يتابع حركة شفتيه،ومرة يراقب صنراته علها تنتفض له سمكة،أو وليمة من بحره، البركة في هذا الشهر فقط...! وكلهم يحبون شهر سبتمبر الخيري مستغانم،وأولياءهم الصالحين يا سيدي الشريف يا ولي الله الصالح بشرفتنا.!! وبودينار،والحشاسطة!! جئناكم أن تنتقموا من أهل المدينة،ومخربيها؟!! وأنت يا يسدي بالعطار،وسيدي لخضر!! وأني لم أتزوج بعد،وقاربت الخمسين ولا أود أن أجازف،مع الأحياء

الشعبية المقطوعة،بروث البقر،والبغال المفضية طرقها على الشارع الكبير،للمدينة شارع الحواتة الذي التهمت فيه النار مطابعه،ومكتباته ودكاكين السمك ومفتاح سري هو عندك،ببرنوسك يا سيدي علي والله...!! والله...!! وأني رهينة موسطاش الكلب وزوجته السرية ريمو جئتك،بأن تعصف ريحك شجرة التوت ملجأ موسطاش القذر، فوق أرضك،والآمر،بتخريب زاوية الجيلاني،بأرض المعمورة، وحفره،لقبره بحثا عن السر الخفي،وهن بداخله وقماشات الطمث المنفلتة من بين فخدي العذروات تجعلك تشفق،عليهن يا سيدي الولي الصالح إن شبابهن غدا باردا الفحولة من جراء عملية الخصي! التي تعرض لها من قبل رجال السلطان،البعض منهم،والآخر من طرف مغرر به،للأستلاء على عرش السلطان،والأضرحة الى حد الساعة ملقية عليها قطع الصابون شبه قديمة من جهة واحدة فقط...! ولست أدري من الذي سرق الإناء بدراهمه،وبعثر الأواني الخشبية المملؤة،بالتوابل،والكمون؟!!! وغيره،وهي تفور ببخارها المتصاعد طوال النهار من فوهة القبة،للولي الصالح دفع الممرض ذراعي،بقوة،وغرز به دبوسا صغيرا به ثقب دقيق جدا،،ويصله أنبوب شفاف من قارورة خاصة ضج المكان،وكل القصر، وحراسه،ظلوا يتابعون مشهدي الفضيع،ويحتسبون أنفاسي القليلة!! والممرضة تنظف أرضية الغرفة،وبلاطها المزخرف حافية القدمين، والقيرع الزوفري يتصور مفاتنها عارية،حتى أخمص أصابعها البضة!! ويخيل،لزميله أنه استفاق من غيبوبته،وأنحدر الى فوهة القبة،والعجوز تقول،وهي ترد الباب الى مكانه

بهدوء!! بهدوء!! يا بناتي سوف تستحممن كلكن واحدة بواحدة ردت الباب،وشرعن يستحممن عاريات، بالتراب،وبولهن على حاشية الضريح،ويصرخن كأنهن ينادين الى فحولهن المجهولين؟!! كنت أستمتع،بالأفخاد وأواصل الطل عليهن قريبا من شجر الهندية المعانقة،للنخلة في شكل تظافري،وأحيانا من خلفية الزاوية!ليتني أشفي حرماني الذي أحرج به خادم الضريح أهل القرية الطواف،عليه كل صباح جمعة،وفي ليالي القدر،وإلا تخسف عليهم سماء الدشرة، وينزل عليها الجراد،وتنبثق من تحت موتاهم الجرذان المتسللة من الأنابيب القذرة،والكلاب الآتية مع الزلازل؟! بقيت العجوز طوال مساء الجمعة كاملة تمرر عليهن عصا الخيزران البغدادي الواحدة تلو الأخرى من أسفلها،حتى أعلاها،ثم بالطريقة الغريبة،فهل هذه العصا رغم توغلها لم تتمكن حتى في افتضاض بكرتهن،بالكامل بما فيهم تلك الطفلة التي رأت في منامها صورة غرائبية،وهو أن الأمرد الفظيع ينام في أنفه بحار، وشاعر ومن كثرة الصيد،حتى وجد نفسه فجأة يمارس صوفية شاذة، بدون صلاة ولا دين،ولا صوم!! مع أنه يعاني من ضعف في الهيبوتلاموس في قشرته الدماغية،وهو هادى جدا. تفطنت فجأة، للممرضة،وهي تتفحص الملف في دورته المسائية شغلتني،وخشيت من اكتشاف هويتي الرسمية،أو أن أدخل في عداد أولئك الذين مددت أجسادهم...وكشفت عوراتهم،وددت أن أتحاشها،والاشرئباب خفية عنهم من الشباك ممددا بصري،نحوه وأنا متأكد من أن الأمرد بوحنين لم يلامس،بعد

أضلاف السفينة، بمطرقته الخشبية،ولا رخام حائط قصرالملك،وهو ما يزال يبحث عن نوعية الجسد الواحد والمائة وجه؟!!!! والقرى مشغولة،بسر السلطان،وتكسيره لكل مرآتات قصره لتحاشي رؤية نفسه عليهن،و بياض المراقبين الدوليين،والانبهار في شعرهم الناعم وجدت التصفيرات الحادة،كوابل من الرصاص من شتى النواحي، والقيرع الزوفري كفيف البصر مقوس الظهر كل شيء تغير وان ما يحدث ليس مجرد رؤيا!! وأقلقني،لامتطاء الكل على مخيلتي تناهى إلى سمعي صوت ضربة عصا على صخرة..كانت تنشر عليها العذروات خرقهن،بدمائهن ورائحة الطمث تتبخر منهن،وما أن خرجت تلك العجوز الشمطاء،نحو عتبة الزاوية حتى توارت خلف أشعة الشمس السرمدية على جدران الطوب تشجعت،وحاولت جاهدا التبرك،بالولي لمعرفة من أصابه،بتلك الغيبوبة،وإلقاء ملابسي معه،للجرذان ؟؟؟؟ ثم سرعان ما حول تفكيري قرن العجوز الشبيه،بقرن الثور فرت الدماء سائلة،فوق الضريح،بقوة أنسحب القرن راجعا إلى غمده متحولا إلى مجرد أنف عادي في وجه العجوز!! تحنطوا ثلاثة شبان منهم هلعا من الحية قطعة اللحم الشبيهة،بالأمرد بوحنين،وأدنيها المثيلة،بأنين الخفاش،ومعها تنين،وأنثاه في عمليته الخصابية تعانقا،في رقصة باليه جميلة،ثم تشابكا في شكل لوحة،وهما يتهاديان حركة عاطفية غزلية بطيئة،تمايلا،في كل الاتجاهات،لتبدا بعدها هي في تلقيح ذكرها،عكس الحيوانات البحرية، فرت البقية دابرة خوفا،من هول الرؤيا!! والذباب يطن عليهم،أشتم فيهم جرو الزوفري الذي

كبر،وتحول الى كلب بكامله شعر،بالخطر حاول الانفلات من الدائرة عوى،ثم سقط على فمه،لكن ظله تخلف،عنه متحنطا على مقربة من قارعة المدينة،وعشب البحر بجانبه،وبدون أية حركة، كالتمثال نسفت عليهم،حتى اقتربوا من برج راو غريب قيل أنه عاش كل العصور،تشاورا،ثم عادت إليهم الروح،وفعلوا ما أمرهم به الشيخ، والأمرد بوحنين الهرم،وهو الآن على خيالتهم يواصل في تحريضهم على العصيان!! اقتربوا كثيرا،بيد أن أحفاده الكثرة في هرج،ولهو وزهو بالأواني التي بعترثها أنا شخصيا من زاوية الضريح،رايته،بلحيته البيضاء،وملابسه،وقششه ملقية،فوق صندوقه الضخم المغلق،بألف مسمار دمشقي قديم التي كانت تبتاع قديما عندنا اقتربت من ساحل بونة،وأنا أخشى أن تصيبني أية صخرة قد تزعزع مشاعري،مع جفاف لعابي،واختلال مفرزة كبدي،على حين غرة من أين أتجه إذن الآن ؟؟؟؟! وأي دهر قد يستفيق من شجرته،ويسقي شجرة السدر المترامية الأطراف على قارعة الطريق المؤدية،نحو المدينة من جنوبها إلى شمالها ومن غربها إلى شرقها ومن قصرها الى قبورها،جدب حزام جروه،و أسترد أنفاسه، بعض الشيء،وهو يردد،بذاته من أين؟!!! وأي؟!!!. بحر قذف بك شاطئه،بهذه السهولة،وهي أول مرة تنسى فيها عطب سراج الدومري،واختفاءه،بنفسه،ومصيبة سفينتك التي أصابها التلف،والغرق وجل خشبها أشتعل في محرقة درجة حرارتها تقارب التسعين تمنوا يا سيدي الضريح،وسيدي الجيلاني معنا،بسره الغامض أنه لولا الأمرد

بوحنين،وشغلهم،بأثره به،لأختطفوا صور كل القبب،قبل هدمها، وأن يرغموا ذلك الفنان على تمثيلهم،وهم يبايعون جارية الملكة شجرة الدر خليفة الملقى حتفه طوران شاه،ولو،لمدة ثلاثة أشهر كسيدتها،أو ريثما نرمم قبورنا،ونبايعها سرا وفي الخفاء بدل من أن يبقى كل واحد قابع على بابه الخشبي العتيق،و في نومهم يضعون دائما،على أفواههم خرق من القماش،حتى لا تتسرب،إليها رائحة الجرذ،والجثث،ومعهما رماد في شكل حبيبات الدرة يتسرب معهما مباشرة من ليالي السمر، والطرب الوافدة مع دخان الليلة الخطيرة التي تعمل على زم،وتكميم الأفواه،بطريقة تلقائية ملصقة سفلها،بعلويها!! وهو مرض مزمن تسرب في الآونة الأخيرة،بين كل القرى،وحتى المدن ما فتئت تحاربه،بواسطة مضمدات معجون الأسنان،ظلت أسنانهم بيضاء ناصعة،كالصدف،ورغم ذلك زارت البلد بردة شتوية منعتهم،حتى من التحية،والولاء،لجارية السلطان خرج شوقهم،وحبهم،للقصر من جلودهم الوسخة مصطدما مع خوفهم من زحف الجراد،على المدينة،وهم ينتظرون متى إزالة ستار الخشبة،لرؤيتهم ذات السبعة رؤوس التي أصبحت تتدحرج من على جانبيه،وهو يمثل بجثته،كالميت جالسا،على عرشه جامدا وسطهم،وبدون أية حركة ولا رمشة عين.تسال،فهل يبكي العالم،وتتهول الرعية حزنا من حوله أم لا؟!! وتحول إشاعة تنصت الجدران،وتوأم بيضة الجرذ، والجراد الى حقيقة تتقدم بها العجوز على عصاها،كشارة خطر،وحصان مطاطي يدحرج من فمه سيلا طويلا.. كان يمتطيه الأمرد بوحنين رغم تقدم

سنه بحثا على صدر الجارية،وحفرها،فهل بثروا قدمي أم لا...؟! أني أشعر،بخفة في جهة نصفي السفلي،وقدم شبه اصطناعية تجعلني أتأخر،على موعد السفينة،وكنت قد أقسمت،بالسموات السبع،وببواطن الأرض السبع،وبدون أي حنت،ومنذ سبع سنين،وأنا أفق على الجدران،والأشجار العالية،لأتنفس من تعب الرحلة التي دامت قرنا من الاصطدام، بين الجدران،والسفن،والأشياء المحشوة،بجوفي المتعرض،لثورات الجراد المسمومة.،بدأت تصلني خطوات عشوائية،وعصا يبدو أنها تركز على زليج الرواق بخفة ماذا يريد مني في هذه الساعة،بالذات،بعماه قد يصطدم مع السرير،أو حديد إطار المكيفة الهوائية،وهو لا يبصر الطريق يكون هدده...! أو أن يبثر الدبابيس المنغرزة،بساعدي،واتلاف كمامة الأوكسجين المثبتة،على وجهي!! ظلت المنظفة تواصل مسح زجاج النوافذ،ببقايا جرائد المرضى التي تصلهم من طرف الزوار،ووجهها يتلون من شدة حبها لي،وقسماتها تنم على اتساع شرايين قلبها المخفق، لدرجة أن فاجأتها العادة الشهرية،قبل موعدها،والعيون تستفز حركتها البطيئة،وكل ما كانت تخشاه هو أن يتسرب لها،و من بين نهديها الصور الغريبة،عن المدن المرسلة إلى خلسة معها وهي تتعرض،للتهشيم من قبل الجراد،والجرذان،والكلاب،وجدران السلطان سوف تزحف،نحو البحر إن استفحلت الظاهرة انقلب،على ظهره،والأسلاك تحز معصميه،وهو يحدق،في قوة عيوني،ذلك النسر المنحوت.وجدت كلب القيرع الزوفري يتابع،عن كثب حركات الجرذ،وهي تطل على المكبل من

جحورها،بالزقاق!! وبين الفينة، والأخرى تدغدغ أصابعي أمواج البحر التي كانت تضرب خشب السفينة النابت،تحت ترابه زهرة واحدة بيضاء جدا،ومندسة،بين ورقتين،والصخر الصامد الذي عثرني في يوم ما،وأنا أعبر هذه الشوارع،والأحياء،لوحتي الزيتية،وهي تتمايل،من على خيطها معروضة،على كتفي،وخياشمي تفرز رائحة كل شيء،وكل قبيلة على حدة،بلباقة جرو.

لذا انتابني الظن من أن أول دورية ليلية،قد تنقذ جمجمتي المعرضة، للهشيم،وسفت الرياح من قبل هذه الأنياب الصدئة؟!! اللحظة،ولكنه لم يلبث أن بدأت رويدا رويدا تسكن الحي حركة خاصة،بعد سبع ساعات، ودقيقة من ليلة غرق السفينة،ولئن تعمدوا قذفي مع صندوق نحلي الذي مات،بداخله خارج أسوار المدينة..بدأت أتحرك زاحفا،كمعطوب بحدث ما!! أو كمدمن من زبائن مسيو ديسكو فاردي،وهو يجثو على ركبتيه من شدة السكر،بحبالي،وسلاسلي المخللة،والتاركة،وشمها علي!! كنت وما زلت معصب العينين تجاه البحر متلمسا الأقضاب الأخرى للسفينة،وأن ألقي بنفسي،بين دفتي الأمواج المتلاطمة،على بعضها البعض،حتى لا يعثروا،على أمر حرق السلطان،لحراسه رفقة الوجوه المضحكة التي كانت تباغتني من حواليه رفقة غلامه القصير والذي كان يثقله سيفه،ونسييه تجريدهم من أسراره التي خابرهم بها ذات مرة،على بلاطه خفية..بقيت الوجوه تواصل طليها،علي

من ثقوب جدار قلاع هرمة،وبقايا المدينة تذر على عيني رمادها ووسخها،مع أوحال الشط

التي بدت اللحظة فقط ،تلطمني،بين شقوقِي قدمي!!...

نبذة عن المؤلف

. المؤلف هو من مواليد جيل الاستقلال١٩٦٨ بالجنوب الجزائري /بشار فنان تشكيلي و له العديد من الكتب و المقالات المنشورة بالصحف و الدوريات العربية بدأ بسنة ١٩٩٢تحصل على العديد من الجوائز الوطنية والولاية بخصوص القصة القصيرة ،كما تجلت جدارته في الازدواجية بين النقد والابداع السردي مشتغلا على التراث العربي العريق في بعض محطاته المجحفة، وهو من الأصوات الأدبية الجديدة التي بدأت تطرح شكلا أدبيا متميزا، في ما يعرف بالرواية الجديدة انفتاحا على ايحاء الدلالة ومتعة الحكي وأجمل ما في أدبه هو عدم الثبات على شكل واحد.

–عن جريدة المساء١٩٩٣

*** عضو برابطة الإبداع الوطنية .**

*** عضو بجمعية الجاحظية**

*** عضو بإتحاد الكتاب الجزائريين .**

*** مندوب سابق لمجلة كراس / بيروت .**

– من مؤلفاته : ١– الكتابة والنص / نقد

٢– رائحة الوشم / قصص

٣– جنون في منتصف الذاكرة / قصص .

٤ . سنابيك الأمير رواية

.٥ صحوة الأشياء روابة

٦ انا الاندلسي /ديوان شعري

١٧اعتراف وطن /ديوان شعري

٨ اعتذار لك في زمن الكورونا /ديوان شعري.